حروف في الرماد

مجموعة قصصية

تأليف

محمد صالح البليهشي

الطبعة الأولى - ١٤٠٢ هـ

من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسومات الفنية

محمد عبد الرحمن اسيام

تقديم

بقلم

الأستاذ عبد العزيز الربيع

لعل من أجمل اللحظات فى حياة الأديب تلك التى يشهد فيها ميلاد أديب. وقد أتيح لى أن أشهد ميلاد هذا الأديب الذى يسعدني أن أقدمه للناس فى هذه الثمرة الأولى من ثماره التى ما أشك فى أنها فاتحة خير لثمار أخرى متنوعة ولن يطول الانتظار بالقراء فعندما يصل كتابه هذا لأيديهم يكون كتابه الثانى قد وصل إلى المطبعة أو أنه فى طريقه إليها.

وإذا كان الشاعر العربى الكبير أبو تمام قد تحدث عن فرحة الأديب بالأديب لما بينها من وشائج الحب وروابط الأخاء وما يجمعها من تعلق بالمثل العليا والقيم السامية وإيمان بالخير والحق والجمال فإن فرحة الأديب بميلاد الأديب فرحة من نوع فريد لأنه يرى فى هذا الميلاد دعماً لرسالة الأدب وإخصاباً لشجرة الحب وإثراء لقدسية الكلمة.

لقد كان من حظى أن أشهد ميلاد هذا الأديب وأن أتابع تدرجه فى مراحله المختلفة وأن ألمس عن كثب هذه الشرارة التى اندفعت إلى نفسه فعملت عملها فى كيانه.. عنيت بها شرارة الحب والمعرفة وهى شرارة متى ماتمكنت من إنسان جعلته فى شوق إلى المعرفة لايهدأ ولايستكين.

وهذا ماحدث بالنسبة لأديبنا الذى أقدمه إلى القراء فقد تسلطت عليه هذه الشرارة المقدسة فجعلته فى شوق إلى المعرفة لايهدأ ولست أعنى المعرفة فى دنيا الكتب ولكننى أعنى المعرفة فى شتى مجالاتها.. دنيا الكتب ودنيا الناس وذلك ماسيراه القراء حين يطلعون على فصول هذا الكتاب.

والأديب الحق هو الذى لاينشغل بدنيا الكتب عن دنيا الناس بل يعيش أحداث

أمته يرقبها بعين واعية وينفعل بما يسمع ويشاهد ثم يصور كل ذلك بقلمه وبيانه يشخص الداء ويقترح الدواء ينشر الخير ويحارب التشاؤم ويدعو إلى الحب والجمال والفضيلة.

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم مجموعة مقالات كتبها المؤلف فى فترات متفرقة أو كما يقول المؤلف فى كلمة الإهداء (إن هذه القصص بعض مما لهثت وراء جمعه.. من قصاصات الصحف والمجلات التى عشت معها وبها هذه التجربة.. وقد فقدت منها الشىء الكثير مع الأسف لأنى ماكنت أهتم بحفظ هذه القصص ولا كنت أحفظ لها صوراً لدى... كنت أعيش معها لحظة من اللحظات ثم تنتهى بما فيها...

وكنت لا أواصل الكتابة فى هذا المجال بل ربما تمضى شهور وشهور ثم أعيش مع تجربة ما... أو تصور.. أو اندفاع نحو هدف معين فأتحفز وأعاود الكتابة من جديد.

يقول المؤلف لقد كتبتها الآن بأسلوبها الذى سبق أن كتبت به أصلاً بلا تغيير وقد كتبت الكثير منها فى مرحلة يسميها علماء النفس مرحلة (المراهقة).

لقد قلت إن هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها المؤلف فى فترات متفرقة أما المؤلف فيقول: إن هذه القصص بعض مما لهثت وراء جمعه ففى رأى المؤلف أن ماحواه كتابه مجموعة من القصص وبعض مما حواه كتابه تنطبق عليه شروط القصة القصيرة كما اصطلح علي ذلك نقاد القصة. ولكن بعضه الآخر لايخضع لتلك الشروط. ومع ذلك فأنا مع المؤلف فى اعتبار كل مافى الكتاب قصصاً لأنى لا أؤيد إخضاع جميع كتاب القصة القصيرة إخضاعاً تاماً لهذه القيود الصارمة التى أقرها النقاد أو اصطلحوا عليها فلا ضير من أن يكون لكتاب القصة قليل أو كثير من الحرية ماداموا قادرين على أن يصلوا بنا إلى الأهداف المطلوبة بعيداً عن اشتراطات النقاد وقيودهم الصارمة.

وحسب القارىء أن يأخذ فى قراءه هذه المجموعة التى تبدأ بقصة (مهاجر النبى) وتنتهى بقصة (الحصاد) ليجد نفسه مدفوعاً برغبة لاتقاوم فى قراء قصة وراء أخرى حتى يأتي على آخرها. وحسب الكاتب نجاحاً أن يفتح شهية القارىء فيقبل على ماقدمه إليه برغبة ملحة وشوق كبير دون تفريق بين لون ولون وصنف وصنف. ومن الغريب أن ماتضمنته بعض القصص من معلومات لاجديد فيها ومع ذلك فأنا واثق من أن القراء سيستمتعون بها كما استمتعت وسيجدون لها مذاقاً خاصاً. وتلك ميزة يتمتع بها قلة نادرة من الكتاب وذلك يذكرنى بحديث أسبوعى أحب الاستماع إليه من إحدى المحطات الأوربية وكنت أسأل نفسى بعد الاستماع إلى هذا الحديث عما إذا كان قد أضاف

جديداً إلى معلوماتى وكان الجواب فى ٩٥ فى المائة من الحالات بالنفى. ومع ذلك فانا مشدود إليه حريص على ألا يفوتنى.

والحديث عن هذه الميزة يجرنى إلى الحديث عن أسلوب الكاتب فى مجموعته القصصية وأسلوبه يمتاز بالعفوية والبساطة وإن كان يتألق أحياناً تألقاً ليس مصدره محاولة التجديد والرغبة فى التنسيق وإنما مصدره الانفعال ومالدى الكاتب من ثقافة لغوية وذخيرة بيانية لم يولها الكاتب اهتمامه وعنايته فى تلك السن التى كتب فيها المؤلف قصصه وهى مرحلة المراهقة كما سبق أن أشرنا. وقد حرص الكاتب على أن ينشر قصصه كما كتبها أول مرة دون أن يعمل فيها يد التجديد والتحسين والتنقيح وحسنا فعل فهى قد نشرت فى الصحف بهذه الصورة ثم أن نشرها فى كتاب بالشكل نفسه يعطى صورة حقيقية للمرحلة الأولى من حياة الكاتب ولذلك أهمية دون شك.

ومع أن مااحتوته هذه المجموعة من قصص لم يكتب فى فترة واحدة وإنما كتب فى أزمان متفرقة وتحت ظروف متباينة فإن القارىء الداعى الحصيف يشعر بأن هناك رباطاً يربطها جميعاً أو بتعبير أدق فإن هناك سلسلة مكونة من عدة حلقات تدور فى إطارها هذه القصص. وهذه الحلقات هى الصدق والحب والإيمان بالقيم يلمس ذلك القارىء الحصيف الواعى فلن يجد فى هذه المجموعة تصنعاً أو افتعالاً وإنما هو الصدق يلف كل قصص هذه المجموعة ومن المؤكد أن وراء هذا الصدق عنصراً خلاقاً عنيت به عنصر الحب وهو أمر واضح كل الوضوح سواء أكان ذلك فى القصص التاريخية التى بدأ بها الكاتب مجموعته أم فى القصص الاجتماعية التالية. ولن أتحدث عن الحب وما يصنعه من أعاجيب فحسبى أن أشير إلى ذلك فى هذه المقدمة لأذكر الحلقة وهى الإيمان بالقيم السامية وتمجيدها والحرص عليها والدفاع عنها والدعوة إليها وتعميقها فى وجدان الناس ولا يتسع المجال للتفصيل والتطبيق والشرح.

وعلى أية حال فليست هذه المقدمة دراسة لقصص هذه المجموعة ولكنها تسجيل للانطباع الذى خرجت به من قراءتها. ثم أنها قبل ذلك وبعد ذلك ترحيب بأديب شهدت مولده وأعجبت بخطواته التى خطاها فى عالم الفكر بثقة وإيمان. إنه الأخ والإبن الأستاذ محمد صالح البليهشى.

وكل ماأرجوه فى هذه المناسبة ألا تجنى الصحافة على أدبه فكم لها من جنايات على الأدب والأدباء.

عبد العزيز الربيــع

رئيس النادى الأدبى



المقدمة

المقدمة

ولدى العزيز : ..

ها أنا أرى الوقت قد حان ... لأتجرأ .. وأقدم لك و.... هذه.... التى هى فى واقعها لاتزيد عن كونها مرحلة.... من مراحل حياتى مع الكلمة... إن هذه القصص بعض مما ماهثت وراء تجميعه... من قصاصات الصحف والمجلات التى عشت معها وبها هذه التجربة... وقد فقدت منها الشيء الكثير مع الأسف لأننى ماكنت أهتم بحفظ هذه القصص ولا كنت أحفظ لها صوراً لدى... كنت أعيش معها لحظة من اللحظات ثم تنتهى بما فيها....

وكنت لا أواصل الكتابة فى هذا المجال... بل ربما تمضي شهور وشهور ثم أعيش مع تجربة ما... أو تصور... أو اندفاع نحو هدف معين... فأتحفز وأعاود الكتابة من جديد... ولهذا قد ترى اختلافاً كبيراً بين قصة وأخرى وأسلوب وآخر... ولكن الطابع العام... هو ماتراه موحداً بينها...

وما أريد قوله هنا أننى لم أفكر فى يوم ما أننى أجمعها... أو أجمع بعضها فى كتاب كهذا ولكن إلحاح بعض الزملاء المخلصين كلفنى الكثير فى البحث عنها ومحاولة جمع ماوجدت منها...

لقد كتبتها الآن بأسلوبها الذى سبق أن كتبت به أصلاً بلا تغيير.. وقد كتبت الكثير منها فى مرحلة يسميها علم النفس مرحلة المراهقة وعندما أعدت فيها النظر لإخراجها فى هذا الكتاب رأيت أن أبقيها كما هى لأنها تحكى مراحل عدة فى حياتى خلال سنوات قد تزيد على خمسة عشر عاماً من الزمن.... وياليتنى كنت محتفظاً بكل ماكتبت فى هذا المجال ومسجلاً تاريخ كل قصة... لو كان هذا لأمكنك يابنى... معرفة الكثير مما تود معرفته عن تجربتى مع الكلمة فى المجال القصصى.

ولدى العزيز :

أقدم هذا الكتيب بما فيه... أقدم لك ولأقرانك راجياً أن تستفيدوا منه... وهذا رجاء إن تحقق وكان مابه فى مستوى الإفادة فهذا مبتغاى وإن كانت الثانية فلا لوم على لأن اللوم عليهم... أولئك الأصدقاء الذين ألحوا وأتعبونى فى البحث عن الماضي بما فيه من غث وسمين.... وعليهم أن يتحملوا أوزارهم وأنا من ذلك براء..

المؤلف

المدينة الخالدة

المدينة الخالدة

المدينة المنورة .. هذا الاسم الذى يحتل أعماق كل نفس مسلمة و يسيطر على شعور وإحساس كل قلب فيه بصيص من نور الإيمان. هذا الاسم الذى اقترن بالبطولات والتضحية والفداء واقترن كذلك بالحب والتسامح والطيبة والرقة والعذوبة هنا فى هذا الموقع من العالم مشى رسول الله صفوة خلق الله أجمعين صلى الله عليه وسلم وفى هذا المكان تربى الرعيل الأول من صحابته الكرام رضى الله عنهم أجمعين.. إن كل شبر فى مهاجر رسول الله ينطق بتاريخ حافل وبطولة فذة من البطولات الإسلامية.

كل شبر فى المدينة لو قدر له أن يتكلم لقال تاريخ الحياة للبشرية جمعاء وبعدما تشرف بتقبيل أقدام سيد الخلق وأقدام أولئك الأصحاب الغر الميامين الذين كانوا مثالاً لكل معنى من معانى التضحية والفداء، إن كل رقعة فى طيبة الطيبة يشع نورها إلى عنان السماء قد اكتسبت من أنوار سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام شعاعاً ساطعاً يتعمق إلى أغوار كل نفس و يضيء جنبات كل قلب ينبض باليقين و يؤمن برسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم..

لقد اختارها الله مهاجرا لرسوله وشرفها باستقباله ونصرته فخرجت منها جحافل الجيوش الإسلامية فاتحة منتصرة فى كل وقت ترفع راية للإسلام وتدعو إلى السلام وتخرج من الظلمات إلى النور.. وفى قدوم رسول الله كانت حياتها وكانت انطلاقاتها التى بهرت الناس بعد أن عاشت ماضياً أسوداً كئيباً وحياة مكفهرة قاتمة طحنتها الحروب والعداوة والبغضاء.

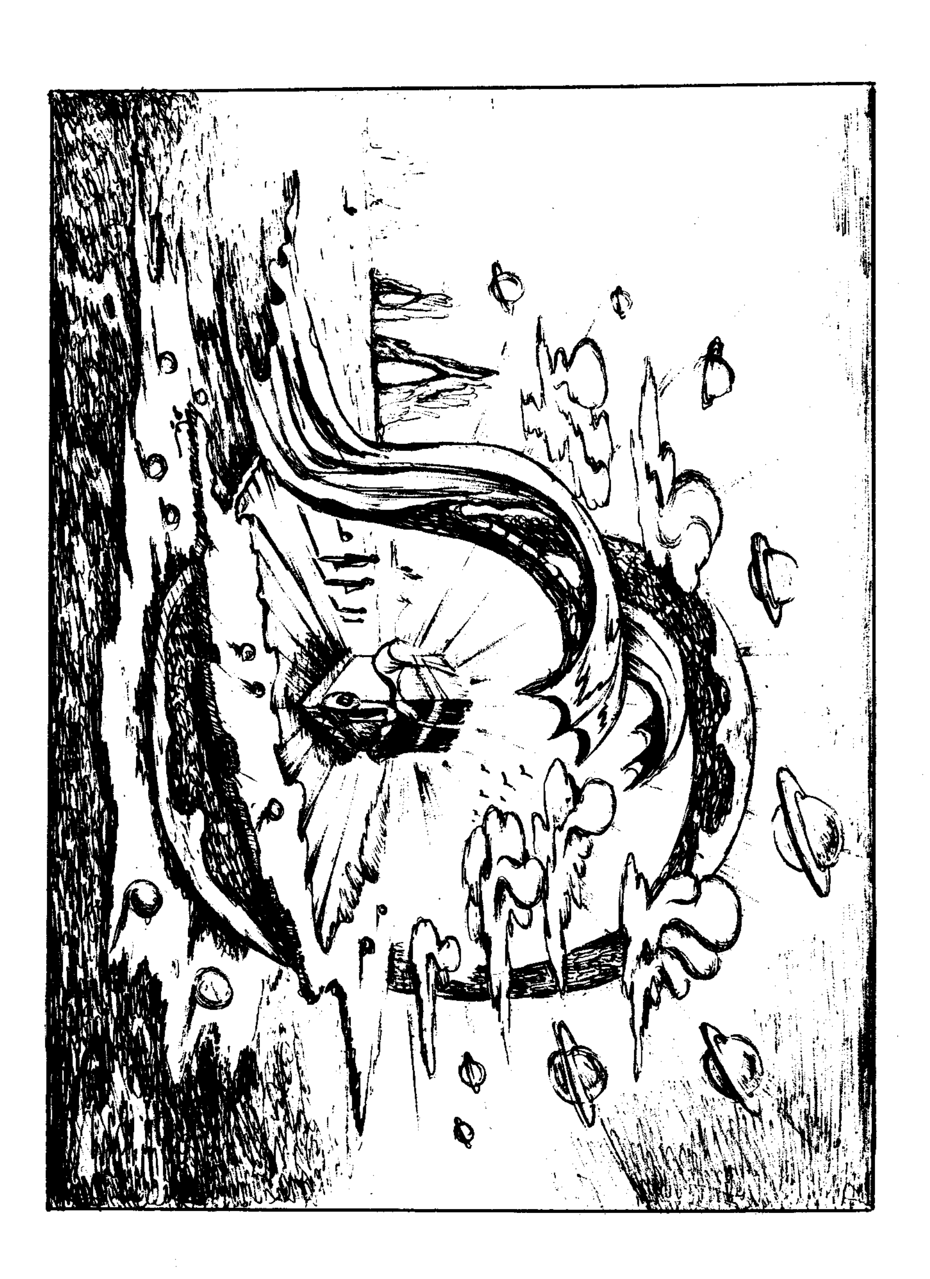
لقد عاشت المدينة المنورة قبل هجرة الرسول إليها فى حروب طاحنة.. القلق يسيطر عليها والحياة فيها قد خضبت بالدماء والمشاحنات على أشدها بين الأوس

والخزرج (بنى قيلة) ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو من كهلان سبأ ملوك اليمن.. ان نار الحرب ماكانت بينهما ولا ثورة الخلاف تهدأ وكانت بينهما أيام و حروب حتى كان يوم بعاث الذى قد أفنى رؤساء القبائل وزعماء العشائر حالفت بعدها الخزرج اليهود مدبرى هذه الحروب والساعين وراءها وأخذت الأوس تبحث عن حليف لها على بنى عمهم الخزرج.. انها الفرقة بين أبناء العم والعداء والمكيدة من اليهود إذ لا يكاد يمر يوم إلا وتشهد يثرب صوت مستغيث أو صراخ متلهف أو زمجرة معقد أثيم فالظلم ضارب أطنابه والحقد والبغضاء صارت أمراضاً مزمنة فى النفوس ولذلك كانت تثور لأتفه الأسباب فتقع الحروب و يزداد لهيب الحياة فيها صخباً وكآبة حتى أراد الله لهذه الأرض الحياة الوادعة المطمئنة باختيارها مهاجراً لنبيه عليه الصلاة والسلام.

فى غمرة ماتعيشه يثرب من أحداث وأحلاف وشحناء وفد على مكة نفر من الخزرج فلقيهم رسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الإسلام فقال بعضهم لبعض ياقوم تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به اليهود فلايسبقنكم إليه فلقى من نفوسهم استجابة وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا و بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك وسرى نسيم الدعوة وذكر محمد إلى كل بيت فى المدينة واستبشر الرسول لما علم بذلك بعد أن ذاق وأصحابه من قريش كل ألوان الأذى و بعد أن دعا كل القبائل المحيطة بمكة وأعلنها فى ثقيف وكنده وفى بنى عامر و بنى حنيفة فلم يكونوا خيراً من قريش رأياً ولا أقل منهم صداً وإعراضاً.

ومضى عام وترقب رسول الله الموسم وإذا إثنا عشر رجلاً يفدون مسلمين لدعوته إثنان من الأوس وعشرة من الخزرج وأعلنوا إسلامهم و بايعوا رسول الله ووعدهم اللقاء فى العام القادم وأرسل معهم الصحابى الجليل مصعب بن عمير يفقههم فى الدين و يقرؤهم القرآن و يعلمهم قواعد الإسلام...

وصل مصعب بن عمير ومن معه المدينة و بذل جهده فى تعليم الناس قواعد الدين ووجدت الدعوة من النفوس فى المدينة مكاناً خصيباً وذابت الكثير من الأضغان والأحقاد حتى كان العام المقبل فوفد على مكة فيمن وفد سبعون رجلاً وامرأتان من مسلمى الأوس والخزرج وعلم الرسول بقدومهم فواعدهم العقبة ولما كان الموعد ومضى



من الليل ثلثه خرجوا من رحالهم مستخفين وأقبل رسول الله و معه العباس بن عبد المطلب وكان اجتماع بينهم فى الشعب عند العقبة فقال العباس: يامعشر الخزرج: إن محمداً منا حيث قد علمتهم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى قوة من قومه ومنعة فى بلده وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة من قومه و بلده.

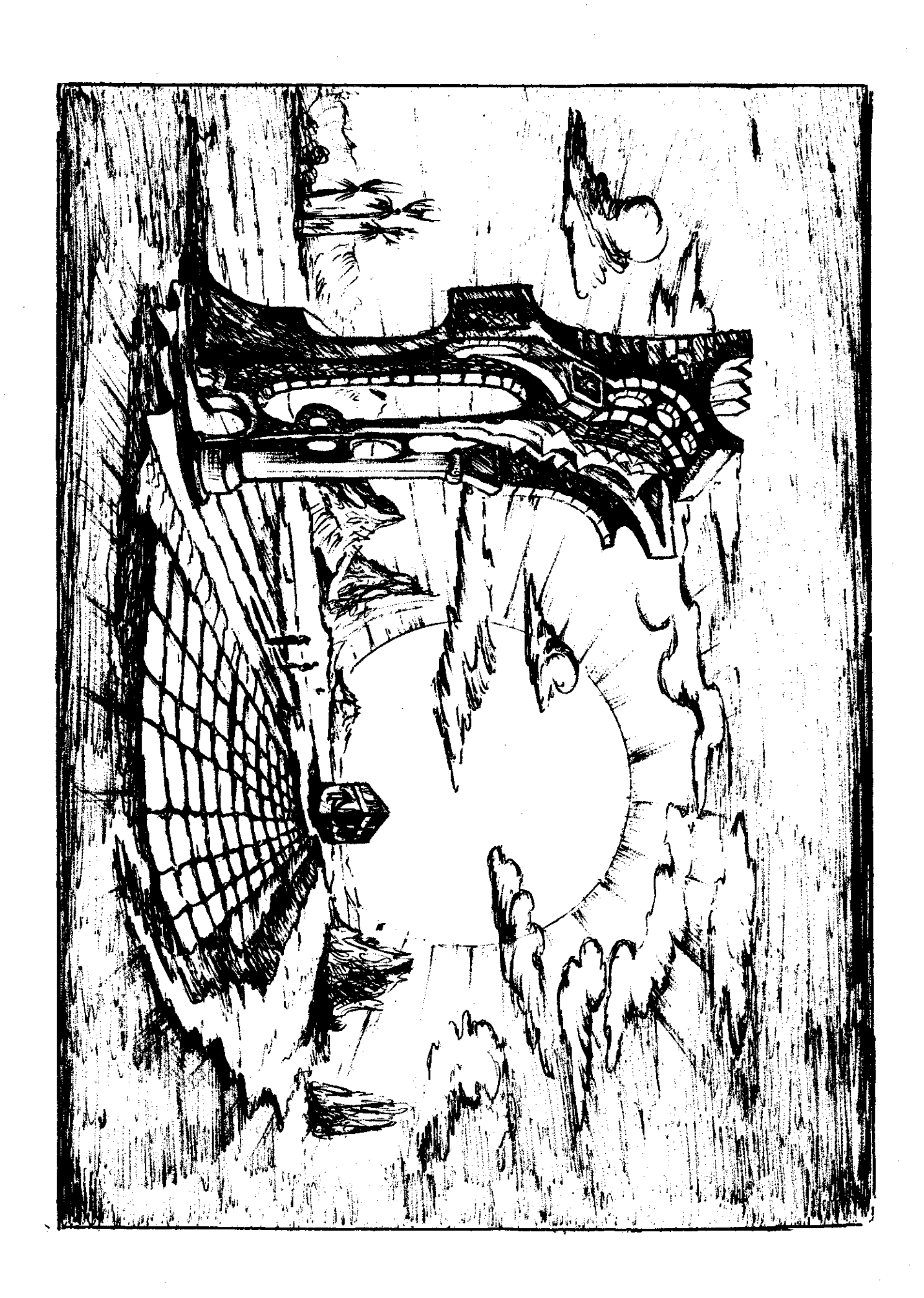
فقالوا : قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت فتكلم رسول الله وتلا القرآن ودعا إلى الله ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فقام البراء بن معرور وقال: نعم فوالذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر وقال أحدهم يامعشر الخزرج هل تدرون على ماتبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس واعترض أبو الهيثم فقال يارسول الله: إن بيننا و بين اليهود حبالاً وانا قاطعوها فهل عسيت أن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟؟ فتبسم رسول الله ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ثم قال لهم اخرجوا إلى منكم إثنى عشر نقيباً ولما انتخبوا نقباءهم قال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى وأنا كفيل على قومى.. وتمت بيعة العقبة وشاع أمرها فى مكة فزاد طغيان قريش وكبرياؤها وأذاها لمحمد وأصحابه واشتد الأذى وزادت المحنة ولما رأى الرسول مايتعرض إليه أصحابه من محنة وفتنة أذن لهم بالهجرة إلى المدينة.

أذن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام فى الهجرة من دار الكفر والطغيان إلى يثرب، تلك المدينة التى استقبلت الدعوة الإسلامية بقلوب متفتحة للإيمان ونفوس راغبة فى التضحية.. وأثناء عزم الرسول على الهجرة إلى المدينة كان تآمر الكفار واجتماعهم فى دار الندوة ذلك الاجتماع الذى قرروا فيه قتل محمد صلى الله عليه وسلم بطريقة مأمونة العاقبة بحيث لا تستطيع بنو هاشم أن تقاتل العرب جميعاً فيرضون بالدية فأوحى سبحانه وتعالى لنبيه بما دبر وكانت الهجرة التى اختار فيها

النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر لصحبته.. حيث خرج الوفد النبوى المكون من النبي وصاحبه أبي بكر من مكة ليلاً واتجه نحو غار ثور وتحصن فيه ومما لاشك فيه أنه وفد محروس مظفر كما طمأن بذلك رسول الله صاحبه حين رأى قريشاً وقال لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال له النبي: لا تخف ياأبا بكر مابالك باثنين الله ثالثهما وفي خضم بحث قريش عن هذا الوفد وإغرائهم بمائة ألف ناقة لمن جاء به حياً أو ميتاً.. في هذا الخضم الخطير كان بيت الصديق يموله بانتظام حيث يرعى عامر بن فهيرة مولى أبوبكر غنمه ويقدم لهم من اللبن مايكفى وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت مع الوفد ويدلج في الظلام قبل الفجر ويصبح في مكة وبين قريش ليحفظ ويعى كل ماتقوله وتدبره قريش.. وفي ثالث يوم في الغار جاء عبد الله بن الأريقط من بني الديل وهو مشرك استأجروه لمعرفة الطرق جاءهم بالرواحل وسلك الوفد المحفوف برعاية الله طريق الساحل من عسفان ثم نزل من قديد حتى سلك القاحة فالغابر فبطن وادى ريم ثم قباء حيث كان المسلمون ينتظرونه يومياً حتى يردهم حر الهاجرة وفي يوم الإثنين من شهر ربيع الأول وبعد أن عاد المسلمون إلى منازلهم من الحر وقف يهودى على اطم لهم فرأى رسول الله وأصحابه في ثيابهم البيض يرفعهم السراب فلم يملك نفسه حتى صاح يا معشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه فثار المسلمون إلى سلاحهم وتلقوه بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل في بني عمرو بن عوف بقباء ونزل تحت شجر في بستان عند بئر غرس بغربى مكان مسجد قباء الآن وصار يبيت في دار سعد بن خيثمة ويقيل في دار كلثوم بن الهدم.

وفرحت المدينة كلها بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها.. لقد سطع ضياؤها وتألقت حياتها واختفت البغضاء والعداوة من النفوس وصارت كل نفس تتطلع بشوق وتطير من الفرح بمقدم خير البرية إليها وبقدومه الميمون تردد في جنبات طيبة الطيبة ذلك النشيد الخالد الذى تطرب إليه كل نفس ويرتاح إليه كل قلب:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع



أيهـــا المـبعـوث فـيـنـــا جـئـت بـالأمـــر المـطـــاع

جـئـت شـرفـــت المـديـنـة مـرحـبـــاً يـاخـيـــر داع

نعم لقد أحلوه فى قلوبهم وأحاطوه بنفوسهم وفرحوا به واتحدوا فى حبه والإخلاص له وأسس الرسول فى أيام إقامته فى بنى عمرو بن عوف بقباء أول مسجد فى الإسلام هو مسجد قباء ثم خرج عليه السلام بناقته من قباء إلى المدينة والقلوب تخفق بحبه والأبصار تتطلع بشوق إليه وتهافت عليه الأنصار قوماً بعد قوم (هلم يا رسول الله إلينا) إلى العدد والعدة والمنعة لكن رسول الله يقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة ومازالت تسير حتى إذا أتت على دار مالك بن النجار بركت على باب المسجد وهو يومئذ مربد تمر لسهل وسهيل ابنى رافع بن عمرو وهما يتيمان فى حجر سعد بن زرارة ثم سارت الناقة ورسول الله عليها حتى بركت على باب أبى أيوب الأنصارى فقال عليه السلام (هاهنا المنزل إن شاء الله) (رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه فى منزله.

وهكذا شرفت المدينة المنورة بهذا الحدث الخالد وطارت شهرتها فى الآفاق بمجىء رسول الله إليها وشرفت كذلك بأيوائها ونصرتها لرسول الله وأصحابه.. فخرجت منها جحافل الإسلام التى رفعت لواء العدل فى كل مكان ونشرت الأمن والاستقرار على هذه الأرض فى وقت علت فيه صيحات الظلم والطغيان وفقدت فيه كل مقومات الحياة لبنى الإنسان..

وحیِ رسول اللہ

وحج رسول الله

تسع سنوات مضت على هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طيبة الطيبة وأخذت أشهر العاشرة تتابع بعضها حتى أتى شهر ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة حينما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام تكاثر أعداد المسلمين ودخول الناس فى دين الله أفواجاً عندها عزم عليه السلام على الحج وسرت فى جنبات المدينة وبين ماحولها من قرى هذه الرغبة من نبى الهدى فعلى البشر كل وجه وطار الشوق بكل قلب للائتمام بخير خلق الله أجمعين.

إنها فرصة العمر لكل مسلم أن يسير خلف رسول الله حاجاً إلى بيت الله وعاشت المدينة أياماً وهى تشهد ذلك الاستعداد وتلك الرغبة العظيمة من كل فرد وداخل كل بيت لقد عزم الرجال والنساء والصبيان على الانضمام إلى مسيرة الخير والحب والسلام التى يقودها نبى الإسلام من منطلق الدعوة ومأرز الإيمان ومضت أيام الشهر سريعاً حتى كان اليوم المشهود لخمس ليال بقينا من شهر ذى القعدة حينما شهدت المدينة طرقاتها تكتظ بمئات الآلاف من المؤمنين ملبية مجيبة داعى الله إلى حج بيته بعد أن سمعت مؤذن الرسول يعلن للناس أن رسول الله حاج فى هذه السنة. لقد يمم صوب المدينة على أثر ذلك خلق كثير كلهم يطير به الشوق إلى صحبة رسول الهدى فى أعظم مسيرة شهدها التاريخ .

وقد عرفت هذه الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاريخ بحجة الوداع وهى الحجة الوحيدة التى حجها عليه السلام بعد الهجرة فلم يحج قبلها ولا بعدها وسميت حجة الوداع لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يودع فيها أصحابه ويقول لهم: اسمعوا منى أبين لكم فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبدا.. وسارت جموع المسلمين فى هذه الحجة من أرض المدينة مع نبيها وأحرمت من ذى



الحليفة وهى فى كل موقف وفى كل حركة وفى كل عمل تسير على هديه وتتبع خطاه وفى كل وقت كان عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه و يبين لهم طريقة الحج و يرشدهم إلى أيسر الطرق و يسهل عليهم و يبين لهم مواقف الحج ومشاعره العظيمة وأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم.

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس يوم الحج الأكبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا، أيها الناس إن نساءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فهو أول ماأبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد: أيها الناس فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم..

أيها الناس: إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ماأحل الله وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متتالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أمـــا بعـــد :

أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحد تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن

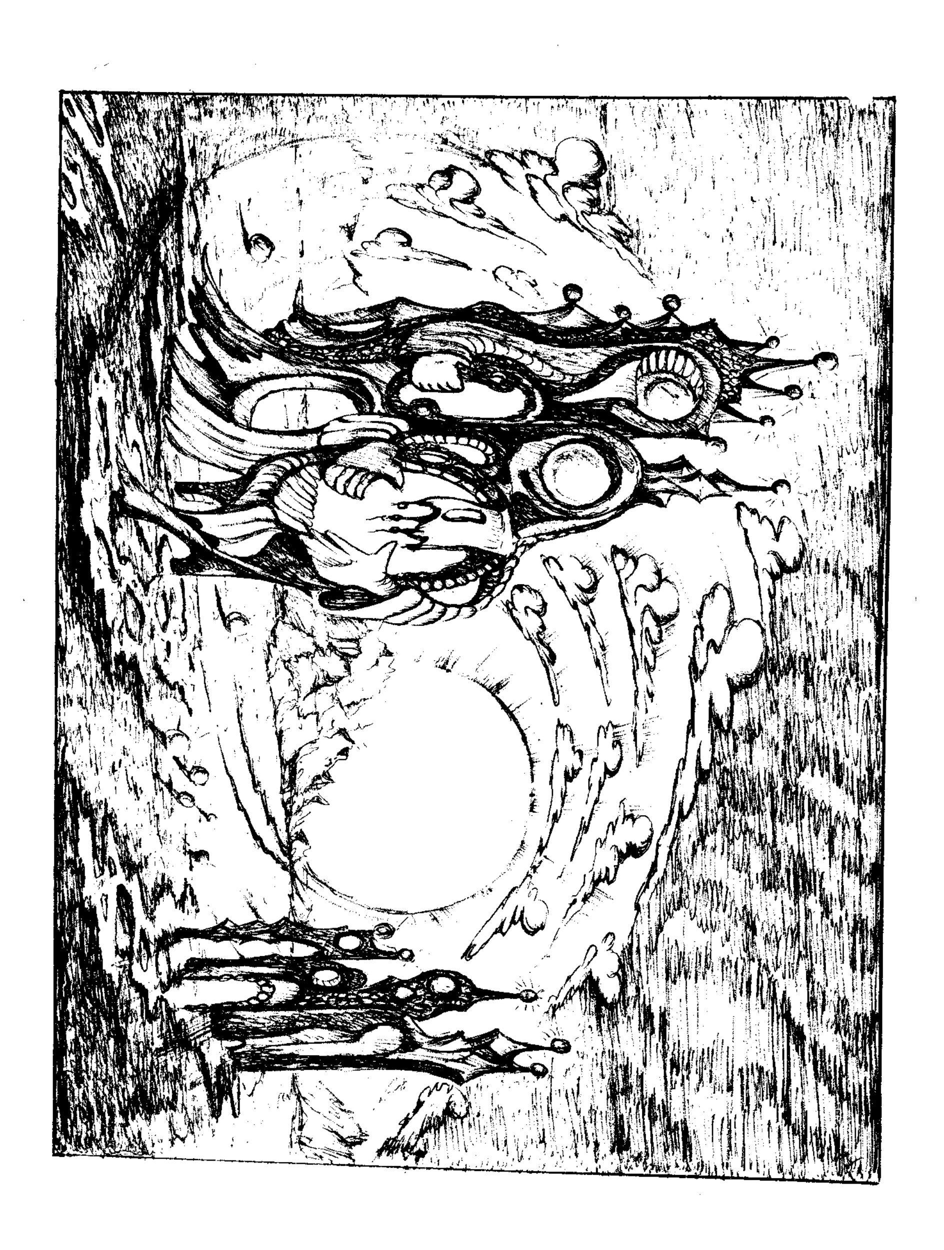
رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وتركت فيكم ماأن أعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت.

فضج الناس جميعهم وقالوا: اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد.

وقال عمرو بن خارجة بعثنى عتاب بن أسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حاجة رسول الله واقف بعرفة فبلغته ثم وقفت تحت ناقة رسول الله عليه الصلاة والسلام وأن لغامها ليقع على رأسى فسمعته وهو يقول: أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه وأنه لايجوز وصية لوارث الولد للفراش وللعاهر الحجر ومن أدعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.





رجال الإيمان

رجال الإيمان

وأصبحت المدينة المنورة فى يوم غائم والحياة تسير بها كعادتها هادئة مستقرة اللهم إلا ماكان يختلج فى النفوس و يتردد فى الصدور حول استكشاف ماكان من أمر المسلمين الذين خرجوا إلى عير قريش حينما أمرهم نبيهم بهذا... كانت الأعين تتطلع إلى كل قادم إلى المدينة من بدر لاستكشاف خبر اللقاء الذى ترددت أخباره أخيراً بين عظماء قريش وساداتها وبين المسلمين ومع إشراقة الشمس على ربوع هذه المدينة التى عمها ضياء النبوة سمع أهل العالية صوت عبد الله بن رواحة كما سمع أهل السافلة صوت زيد بن حارثة رضى الله عنهما يبشران من بالمدينة من المسلمين بفتح الله على رسوله وانتصار جيوش الإيمان فى بدر على صولة قريش وجبروتها وطغيانها ويذكران لهم أخبار النصر المؤزر فى بدر ويستعرضان قتلى قريش.

وهنا هلل المسلمون الذين فى المدينة وكبروا واستبشروا بهذا وحمدوا الله على ذلك النصر العظيم الذى أثبت لكل قبائل العرب مولد دولة الإسلام القوية التى أرسى دعائمها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

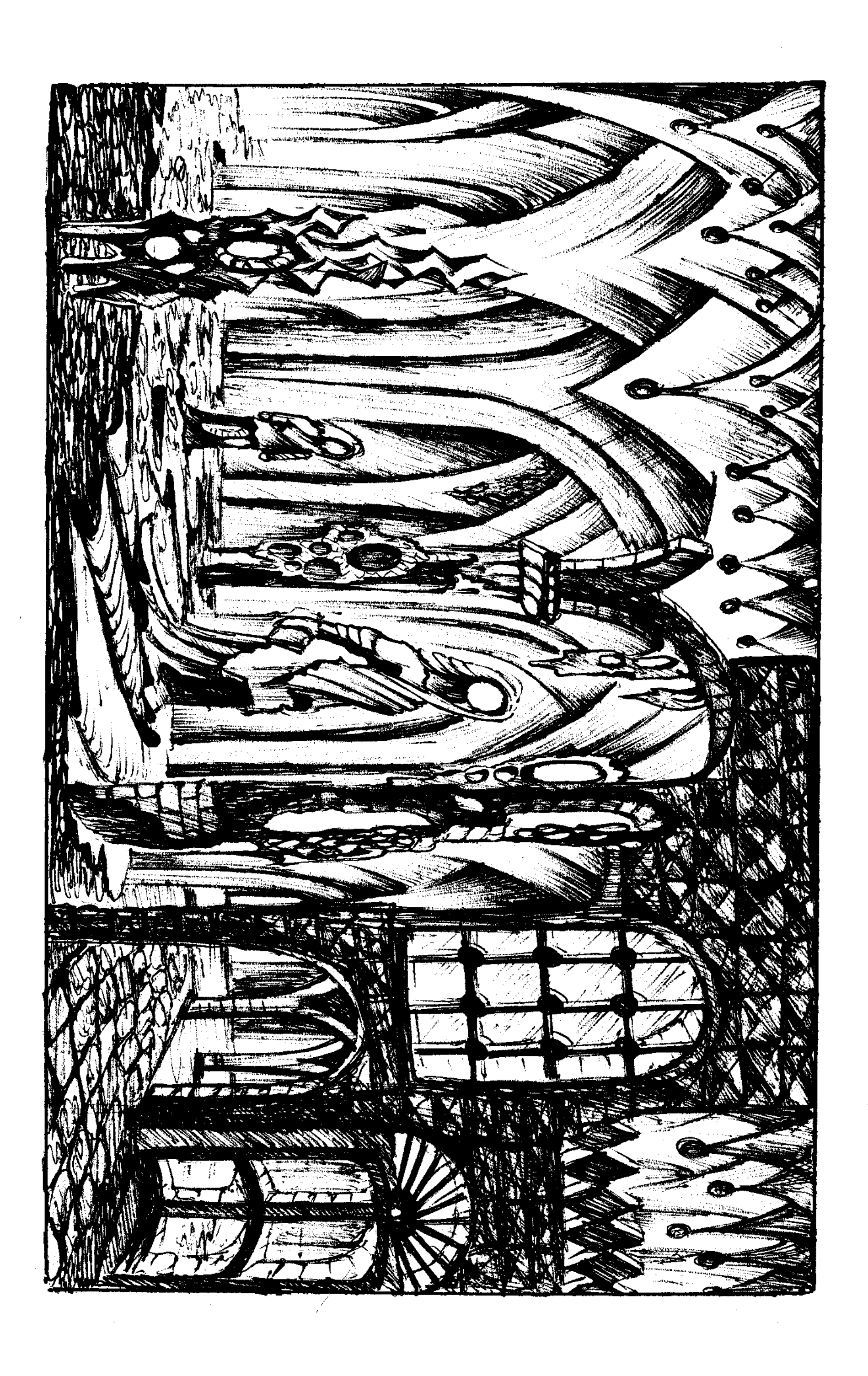
أما المنافقون واليهود فقد طار لبهم وأصابهم الهلع والجزع وشبت فى نفوسهم نيران الأحقاد والعدوان والبغضاء على الظهور لهذه الدولة المسلمة وهذا النصر الذى أحرزته وأثبتت وجودها بين أمم الأرض وكان على رأس هؤلاء اليهود الحاقدين كعب بن الأشرف الطائي النبهانى .. لقد أكل الحقد قلبه وبلغ منه الغيض مبلغه ولذا قال لما سمع خبر النصر أحقاً هذا؟؟ أمحمد قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان — يعنى زيداً وعبد الله بن رواحة — فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ظافراً منتصراً... وفرح المسلمون

بنصر الله وابتهجوا بهذه الموقعة العظيمة التى أثبتت لكل حاقد أن دولة الإسلام قوية صاعدة وأنها قد أعلنت فى مكة وعندما تيقن كعب بن الأشرف عدو الله الخبر رأى أن يخرج إلى مكة يحرض على حرب محمد و ينشد الأشعار على قتلى بدر و يفصح عن صداقته لقريش.. ونزل على المطلب بن أبي وداعة بن خبيرة السهمى فى مكة وأظهر لقريش صداقته وبكى معهم على القتلى من أصحاب القليب فى بدر ونظم الأشعار ومما قاله فى هذا:

طحنت دجى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا . إن الملوك تسرعوا
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ... ذى بهجة يأوى إليها الضبع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود و يربع
و يقول أقوام أسر بسخطهم ... أن ابن الأشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليس الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث لطبعته ... أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس بينى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمى على الحسب الكريم الأروع

وعاش كعب فى مكة أياماً يشارك قريشاً فى مصابها و يذكر أمجادها ويحرضها على الانتقام من محمد وأصحابه و يقول فى ذلك الشعر و يتباكى على قتلى قريش فى القليب، وأخيراً عاد إلى المدينة وبقى بها عدواً لدوداً للمسلمين يعمل كل مافى وسعه لإيذائهم. وبلغ به الأذى أن شبب بنسائهم.. وتذمر المسلمون من هذا الأذى



ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأزعج أصحابه من عداوة هذا الرجل وتطاوله عليهم وتشبيبه بنسائهم. ورأى عليه الصلاة والسلام أن الوقت قد حان لكف أذى هذا الطاغية ولكن بأية وسيلة. وهو فى وسط أخواله اليهود و يقبع فى حصن منيع شامخ لا يطوله أحد فى عالية قباء. بأى طريقة يستطيع أن يقطع لسانه جزاء مافعل من التحريض والتشبيب والمعاداة الصريحة الواضحة. لقد زادت عداوته عن حدها وكان لابد من الانتقام لأعراض المسلمين فى المدينة التى شبب بها هذا اللعين لكف أذاه من ناحية ولإدخال الرعب والخوف فى قلوب من تسول لهم أنفسهم أذى المسلمين أو التعرض لهم من اليهود والمنافقين من ناحية أخرى.

فعزم الرسول عليه الصلاة والسلام على قتله وقال فى مجلس أصحابه.. من لى بابن الأشرف؟ فرد على الفور محمد بن مسلمة الأوسى أنا لك به يارسول الله. أنا أقتله قال عليه الصلاة والسلام افعل إن قدرت على ذلك.

ومحمد بن مسلمة الأوسى رجل شجاع شديد يحمل قلباً قوياً ويمتاز بالإيمان الراسخ. وهو أبو عبد الله محمد بن مسلمة يتصل نسبه إلى عمرو بن مالك بن الأوسي شهد رضى الله عنه بدراً والمشاهد كلها واستخلفه النبى على المدينة فى غزوة تبوك ومنحه سلب مرحب يوم خيبر...

ولقد عزم محمد بن مسلمة على الوفاء بوعده لرسوله عليه الصلاة والسلام وكبرت فى مخيلته طريقة هذا الوفاء بالوعد وأخذ يفكر فى طريقة وفائه والفوز بالقضاء على هذا الطاغية فكث ثلاثة أيام لايأكل ولا يشرب إلا مايعلق بنفسه. فذكر ذلك لرسول الله فدعاه فقال له لم تركت الطعام والشراب؟ فقال يارسول الله قلت لك قولاً لا أدرى هل أفي لك به أم لا؟ فقال إنما عليك الجهد. فقال يارسول الله إنه لابد لنا من أن نقول.. قال.. قولوا مابدا لكم فأنتم فى حل من ذلك.. فتهلل وجه ابن مسلمة لهذا وأحكم خطته لهذا الأمر الخطير فجمع معه سلكان بن سلامة ــ أبو نائلة ــ وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر والحارث بن أوسى وأبى عيسى بن بشر..



وسار أبو نائلة سلكان بن سلامة حتى وصل كعب بن الأشرف وتحدثا طويلاً ثم قال أبو نائلة.. ويحك يابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد أن اذكرها لك فاكتم عني قال: افعل. قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا به العرب ورمتنا على قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا فقال كعب بن الأشرف: أما والله لقد كنت أخبرك ياابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول فقال سلكان إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك ونحسن فى ذلك فقال: أترهنونى أبناءكم قال: لقد أردت أن تفضحنا.؟ إن معى أصحاباً لى على مثل رأيى. وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة ــ السلاح ــ مافيه وفاء.. قال إن فى الحلقة لوفاء وهنا رجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم الخبر وأمرهم أن يأخذوا سلاحهم وقد مشى رسول الله معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم.. وعندما انتهوا إلى الحصن هتف به أبو نائلة وكان كعب حديث عهد بعرس فنزل وتحدث معهم ساعة ثم خرجوا يتماشون وشام أبو نائله يده فى رأس كعب وقال مارأيت الليلة طيباً أعطر قط ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم عاد لمثلها فأخذ يقود رأسه وقال: اضربوا عدو الله فضربوه.. وتناول محمد بن مسلمة سكيناً فى سيفه فوضعه فى ثنته وقد صاح عدو الله ووقع على الأرض. وبذلك أطاح المسلمون بهذا الطاغية الذى تكرر أذاه عليهم ووقف فى سبيلهم وشبب بنسائهم واستراحوا من شره وأذاه.

وفى الإطاحة بهذا الطاغية يقول كعب بن مالك رضى الله عنه:

فغودر منهم كعباً صريعاً ... فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور
يأمر محمد إذ راح ليلا ... إلى كعب أخو كعب يسير
فماكره فنزله بمكر ... ومحمود أخو ثقة جسور

النشيد الخالد

النشيد الخالد

كلما دار الزمن دورته فى كل عام تردد فى النفوس المؤمنة ذلك النشيد الخالد الذى حفظته الأجيال على مر العصور والأزمان.. ذلك النشيد الرائع الذى خرج من قلوب مؤمنة ونفوس مستبشرة بمقدم خير البرية وصفوة الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

ذلك النشيد الذى استقبلت به طيبة الطيبة رسول الهدى وهادى البشرية من دياجير الظلام إلى نور الحق والصدق واليقين. ذلك النشيد الذى رددته المدينة من أقصاها إلى أقصاها يوم أن استبشرت وعمت الفرحة فيها كل بيت بقدوم النور المبين الذى أضاء قلوب الأنصار وتغلغل إلى أعماق نفوسهم رجالاً ونساء وشيباً وشباناً حتى خرجت يثرب وهى تردد عن صوت واحد....

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحباً يا خير داع

ولما أذن الله لحبيبه صلى الله عليه وسلم بالهجرة واصطحب معه الصديق وعلم الأنصار بخروجهم من مكة بدأوا يترقبون وصوله إليهم يتلهفون لرؤية نبيهم فى مدينتهم ويتعمقون بأبصارهم عبر الأفق البعيدة فى كل يوم لعلهم يرونه مقبلاً نحوهم ولتسمع قول أحد الأنصار يصف ذلك الترقب والانتظار حيث يقول: لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقعنا قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى



ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله مانبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا وذلك فى أيام حارة حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود وقد رأى ماكنا نصنع وإننا ننتظر قدومه عليه السلام علينا فصرخ بأعلى صوته:

يا بنى قيلة هذا جدكم قد جاء قال: فخرجنا إلى رسول الله وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك وأكبره الناس ومايعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله فقام أبو بكر فظلله بردائه فعرفناه بعد ذلك.

وقد كان يوم وصول النبى إلى قباء يوماً مشهوداً فى تاريخها حيث عمت الفرحة كل قلب واستبشرت بقدومه كل نفس وأخذ الأنصار يصلون إلى دار كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمة زرافات ووحدانا ليرو رسول الله وليطمئنوا على وصوله سالماً إليهم. وقد أقام عليه السلام فى قباء ثلاثة أيام أو أربعة وفى هذا يقول ابن هشام: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة فى بنى سالم بن عوف وصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى وادى رانوناء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.. حقاً لقد كان يوماً مشهوداً فى تاريخ هذه المدينة لم تشهد قبله ولا بعده مثله ذلك اليوم العظيم الذى سار فيه موكب المصطفى صلى الله عليه وسلم سائراً من قباء إلى المدينة يحفه الأنصار من كل جانب بنفوس متلهفة وقلوب خفاقة ونفوس متعطشة لتنال فخر الدهر وتحظى بنزول رسول الله فيهم. لقد شكلوا وفودهم لاستقبال هذا القادم العظيم. ففى مسيرته عليه الصلاة والسلام وهو على ناقته أتاه وفد بنى سالم بن عوف يتقدمهم عتبان بن مالك وعباس بن عبادة فقالوا يارسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة. فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فانطلقت ناقته حتى وازنت دار بنى بياضة فتلقاها وفدها برئاسة زياد بن لبيد وفروة بن عمر فقالوا مثل مقالة وفد بنى سالم بن عوف فرد عليهم المصطفى قائلاً: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فسارت القصواء حتى حاذت دار بنى ساعدة فوقف وفدها يتقدمهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو طالبين من الرسول أن ينزل بينهم فى العدد والعدة



والمنعة ولكنه عليه السلام يقول لهم مثل مقالته لبقية الوفود التى وقفت له من قبل وسار موكب الرسول يجلله الوقار وتطلعه الحب حتى حاذى دار بنى الحارث بن الخزرج فإذا بوفدها يتقدمهم سعد بن الربيع وخارجه بن زيد وعبد الله بن رواحة ثم وفد بنى عدى بن النجار وهم أخواله حيث أن سلمى بنت عمرو أم عبد الله إحدى نسائهم ويتقدم وفدهم سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبى خارجة ويعتمد هذا الوفد على صلة القرابة ليركز عليها قائلين: يارسول الله هلم إلى اخوالك إلى العدد والعدة والمنعة فيرد عليهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

وتسير ناقة رسول الله عليه الصلاة والسلام فى هذه المواكب الحافلة حتى تأتى دار بنى مالك بن النجار فتبرك فى مربد سهل وسهيل ابنى عمرو من بنى النجار فلما بركت ورسول الله عليها لم ينزل وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه وأرزمت ووضعت جرأتها فنزل عنها رسول الله.

وبهذا تهلل وجه أبى أيوب خالد بن يزيد وكاد يطير من الفرح بهذا الشرف العظيم وأسرع من فوره إلى رحل رسول الله ووضعه فى بيته وأقام رسول الهدى فى دار أبى أيوب الأنصارى حتى بنى مسجد رسول الله وبيوته حيث انتقل إليها...

وفى أثناء بناء المسجد أصابت سعد بن زرارة نقيب بنى النجار (الذبحة) وهو نوع من الأمراض يصيب فى الحلق فمات، وهنا اجتمع بنو النجار إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليختار لهم نقيباً حيث قالوا: يارسول الله إن هذا الرجل قد كان منا حيث قد علمت فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ماكان يقيم فقال لهم: أنتم أخوالى وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم وكره رسول الله أن يحظى بها بعضهم دون بعض فكان من فضل بنى النجار الذى يعدون على قومهم أن كان رسول الله نقيبهم..

طريق السعادة

طريق السعادة

لم يكـن سعيـد مـن أبنـاء الثـراء والنعيم بل كان ذلك الطفل الذى لم يتجاوز التاسعة من عمره، توفى والده وهو فى الثامنة وماتت أمه قبل والده بسنة واحدة... توفى أبوه ولم يترك له شيئاً من متاع الدنيا اللهم ذلك البيت الصغير المتهدم الذي أصبح فى معزل عن بيوت الحى. ولهذا كثيراً مايجد لذة فى البقاء به معظم وقته. إنه يشعر باللذة والسرور حينما يكون بين جدران هذا المنزل الصغير ولكن كيف يجد هذا الوقت وعمه يلاحقه بين فينة وأخرى؟ عمه الوصى عليه الذى يصغر والد سعيد بسنتين ويزيد عنه بخمسة من الأبناء وشيء من السمعة والثراء. لقد وجد فرصة عندما آل أمر سعيد إليه... وجدها حينما رأى أن الحقل الذى أمام داره يحتاج إلى من يقوم برعايته والحفاظ عليه من أغنام الجيران وأطفالهم. ومن لها سوى سعيد هذا الذى صار دخيلاً عليه فى بيته ومزاحماً لأبنائه فى معيشتهم..

وكانت نفسه تحدثه أحياناً بترك سعيد وإهمال أمره وعدم العناية به ولكنه يخاف من ألسنة الناس وأحاديثهم بترك ابن أخيه. ولذلك أعد خطة يومية لهذا الطفل المسكين. إن عليه حراسة الحقل من الصباح حتى المساء وعدم مبارحته أو تركه. والويل له ثم الويل إن لم يقم بهذا العمل.. وحتى الناس سوف لا يخطئون عندما يظهر لهم أنه يود رعايته وحفظه بهذا العمل البسيط بالنسبة له والصعب كل الصعوبة أمام طفل صغير يحب الحركة واللعب والمرح.. لم يجد سعيد متنفساً من هذا العمل الشاق الممل. فهناك أبناء عمه يمرحون ويلعبون مع أبناء الجيران فى الساحة الكبيرة التى بجانب دارهم القديمة... ويحس بحرقة عظيمة وآلام فى نفسه لا يعلم كيف يتخلص منها. وحتى أبناء عمه كانوا يخبرون والدهم حينما يرى سعيد فرصة صغيرة للعب معهم وهنا ينزل السخط بجميع ألوانه واللوم بكافة أشكاله على (هذا الولد الشقي المتعب). العنيد فى نظر هذا العم وزوجته الغليظة القلب..



وتمر الأيام وسعيد لايزال يعانى من المتاعب والآلام النفسية بفرضية العمل وحرمانه من اللعب والفكاهة والعطف والحنان... وفى صبيحة يوم جمعة و بينما كان سعيد فى الحقل الذى مل النظر إليه وسئم المقام فيه وإذا بإمام مسجد القر ية يناديه...

إنه الشيخ صالح الذى كثيراً مانال سعيد عطفه وشفقته بكلماته الحلوة وحكاياته الممتعة وابتساماته المتتالية... أتاه ليخبره بأن لديه عزماً أكيداً على تعليم أبناء القر ية.. تعليمهم القراءة والكتابة وتحفيظ المجيدين منهم القرآن الكريم. ولا يقف الخبر عند هذا الحد بل إن دار سعيد الصغيرة سوف تكون مقراً لذلك... و يز يد من إعجاب سعيد وفرحته أن عمه وافق على هذا الإجراء الذى أقنعه به الشيخ صالح وعلى إدخال سعيد مع صبية القر ية للدراسة والتعليم...

لقد كانت فرحة كبرى و بشرى عظيمة ليترك الحقل إلى حيث يجد أقرانه هناك يجتمع بهم ويحادثهم و يلعب معهم أيضاً...

وفى صباح اليوم التالى ذهب سعيد إلى بيته الصغير الذى أصبح مقراً للتعليم. يالها من فرحة كبرى أن يعيش بين جدرانه لحظات فيها أخذ وعطاء وحركة وحديث. و يالها من أيام جميلة يقضيها مع هؤلاء الفتية حتى منتصف النهار ثم يذهب فى النصف الأخير منه للحراسة فى الحقل.. وتبدأ الدراسة و يكون التنافس و يبرز سعيد من بينهم. لقد وجد ضالته. أنه قد أصبح طالباً نجيباً ألمعياً ذكياً نال إعجاب الآخر ين بفهمه وإدراكه وسرعة حفظه. ووجد العم شيئاً فى نفسه وبدأ الحقد يدب فيها فأضاف إلى الحراسة العمل. إن على سعيد أن يذهب للدراسة وبعد الخروج منها عليه أن يذهب إلى الحقل ليعمل حتى لا يجد فرصة للمذاكرة والاطلاع وحتى لايسبق أبناء عمه الذين يجب أن يكونوا فى المقدمة. وبجانب هذا وجد الضرب والتوبيخ والحط من الهمة سبيلاً اليه.. و يوجس فى نفسه أخيراً أن يخرجه من الدراسة. ولكنه ماذا يفعل أمام الناس المحيطين به الذين تصل اليهم أخبار سعيد وجده واجتهاده....

ويحس سعيد هذا من عمه ويخبر الشيخ صالح و يتفقان على أن يكتما السر بينهما

يمضى فى طريقه. و يظهر الشيخ صالح أن سعيداً قد تغير وأنه لا يقاس بشىء بالنسبة لأبناء عمه. فالبلادة والبلاهة والغباء واللامبالاة صفات سعيد. وهنا يتجه سعيد إلى كتاب الله حفظاً وتجو يداً و يذهب منذ الصباح الباكر فى كل يوم وقبل أن يأتى زملاؤه لكى يستظهر ما أخذه بالأمس . ومن ثم يعتزل مكانه ليذاكر وحده وهكذا أمضى وقتاً ثميناً بمساعدة الشيخ صالح.. وفى أمسية جميلة و بينما كان سعيدٌ عائداً من الحقل الذى أتعبه وأشقاه إلى دار عمه التى لقى فيها الهموم والمتاعب تذكر أن غداً مهم فى حياته.. تذكر الساعة الحلوة التى ستمر به غداً عندما يكمل آخر سورة فى القرآن الكريم أمام فرحة وتصفيق شبان القر ية الذين لايعلمون بالخبر. والذين لم يدر بخلدهم أن سعيداً أول من يتم الحفظ والتجو يد لهذا الكتاب العظيم.. ويمر الليل كله دون نوم أو استراحة بل كانت الأفكار جميعها تلتقى حول الساعة المنتظرة...
ومع ترنح الشمس فى بهو السماء و بنفس مليئة بالفخر والاعتزاز و بين هتاف الشباب وتصفيقهم أعلن الشيخ صالح فوز سعيد وإحرازه قصب السبق بين الزملاء وإتمام حفظه لكتاب الله تعالى . لقد أصبح رجلاً من الحفاظ أحبه الناس وعلت شهرته وطفت على محاولات عمه للنيل منه والحط من منزلته. ولو عرف هذا مسبقاً لما وافق كلياً منذ البداية ولكن أراد الله إلا أن يتم هذا الأمر لهذا الفتى الطموح.. وتمر شهران على هذا الحدث وتفتتح مدرسة فى القر ية و يكون سعيد مديرها رغم أنف الحاسدين.. نعم لقد صار سعيد مديراً لهذه المدرسة لأنه أصبح الرجل المتعلم الأول فى القر ية وبذلك تحول منزله الصغير إلى مدرسة مستشارها الشيخ صالح ومديرها الأستاذ سعيد ومن بين طلابها أبناء عمه وشباب القر ية بأجمعها.

الوفاء

الوفــاء

أفل الشيخ راجعاً إلى مضرب خيامه وخيام قومه التى كانت قد ضربت أطنابها على ربوة عالية اصطبغت حصباؤها بلون ارجوانى بديع.

كانت الشمس كحسناء أعياها ملل فذبل عودها واهتز قوامها واختلط دم وجهها بلونه فبدا مصفراً عسجديا.. مالت الشمس إلى حالة الراحة من رحلة يوم طويل.

تنقل الشيخ بناظره حول الربوة فإذ بالليل قد أسدل رداءه الأسود على الكون. ليمنح كل غاد ورائح قسطاً من الدعة والسكون... قسطاً يستبدل به عناء يوم شاق ممل وما هى إلا ساعة وقد اجتمع القوم حول نار شيخهم يتحدثون عما جرى لكل منهم فى يومه من غريب الأمر وعبرته. وعجيب القول وفكاهته. يتنقلون بالحديث كما تنتقل ماشيتهم باحثة عن أطايب العشب وجميل نبته ومنظره...

ويمر حديث القوم تباعاً علهم يستجذبون أطراف أحاديث شيخهم الذى صمت هذه الليلة ولم ينطق ببنت شفة. وقد عرفوه من قبل الواعظ لهم المشنف آذانهم بحلو القول وجميل المنطق. ولكن عبثاً يحاول. فمازالت صيحات وضحكات شبابهم تشق ستار هدوء الليل وسكونه اثارة له واشتياقاً لحديثه حتى آن أوان هجعتهم واشتياق أجفان كل منهم لتسترخى.. تلك الأجسام التى أمضت ذلك اليوم بين كد وتعب وعمل.. فانصرف الجميع وقد رابهم صمت شيخهم لا يلوون من أمره على شىء ولا يتجرؤون على الإقدام عليه بسؤاله عن سبب صمته الرهيب هذه المرة...

وطاف الكرى على الكون فهجع جميع من تحركت فى جسده نفس. ونبض بين ضلوعه قلب، وجرى فى عروقه دم سوى ذلك الشيخ وأمثاله...

ذلك الشيخ الذى استلقى ولم يلبث أن ضرب بينه وبين النوم ستاراً لا يدرى هو



نفسه ماسببه.. غالط الشيخ نفسه وأغمض عينيه مرات ومرات لعل هفوة تأتيه أو غفوة من ذلك السلطان الذى تركه وحده طليقاً دون أسر...

سبح خياله ودارت فيه أشياء وأشياء يفكر و ينتقل من خيط إلى خيط فى شبكة واسعة الحلقات طو يلة لا نهاية لها من التفكير المطلق فى هجعة الليل.. الليل الذى لا يشعر بطوله وتمدد ساعاته إلا كل قلب سقيم معنى اصطادته وأسرته الأسقام والهموم والمتاعب.. لقد كانت ليلة ليلاء على ذلك الشيخ الذى أمضى العقد الثامن من عمره وزاد عليه سنوات لم تمر به خلاله مثلها...

وفجأة فى الهز يع الأخير من الليل أطل القمر مبتسماً ومرسلاً أشعة رقيقة مرهفة إلى كل شبر أمامه.. و يالشد فرحة الشيخ بوجوده معه يؤانسه ويمضى معه بقية ليلته التى شعر فيها بانقباض فى نفسه لا يدرى كيف ومع من يستطيع أن يبدد هذا التقلص والاحجام الذى أحس به... وهاجت شجونه برؤ يته للقمر فحياه بنظرة رائعة وتأمل عميق وزاد تأمله فى فضاء واسع يشير فيه كواكب كأنها مملكة قد منحت ملكها ــ القمر ــ تاجاً مرصعاً بالجواهر واللآلىء.. يسير فى هذه المملكة الواسعة فينشر الخير والنور. و يناجيه كل من رآه بقلبه مناجاة الصديق الوفى لصديقه دونما تكلف أواجهاد.. وتاه الشيخ بعمق تفكيره إلى أن أحس أنه يناجى القمر قائلاً... أيها القمر ياملك النجوم ترى هل هجرك النوم هذه الليلة؟.. إننى أعرفك من قديم. ألا يدب التعب إلى أوصالك؟. أين تذهب عندما تغيب؟ لماذا تفارق هؤلاء الذين التفوا حولك وقد أصفوك الجيرة؟ أم أنك لا تهمك كل تلك الأمور فتذهب دون استئذان؟ ولكنك تعود. ألم تر فى مسيرك جارنا القديم الذى رحل عنا ولم نعد نسمع بأخباره؟... لقد سألت سوانح الطير و بوارحها عن مكانه ولكنها لا تجيب...

وهنا بدأت فى مخيلة الشيخ حلقة واسعة مبهمة من استعادة صور الماضى البعيد فلقد تذكر يوم أن كانا طفلين يرعيان بجانب الجبل الأخضر قرب الغدير يمسكان صغار الطير فى أعشاشها. و يتسلقان أشجار الطلح والسدر بحثاً عنها... تذكر يوم أن جادت السماء بذلك المطر الغز ير فوضعت عليهما السيول حصاراً دام يوماً وليلة وهما فى مكانهما مع مجموعة أغنامهما ينتظران الرحمة وقد أيقنا بالهلاك...

ومرت بالشيخ لحظات طالما استعطف عجلة الزمن لتمنحه بعض الوقت ليقلب صفحات ماضيه المجيد الذى سجل أسطرها بنفسه يوم أن كان يستظل تحت ظلال سيفه كل من تسرب إلى قلبه خوف أو سرى فى أوصاله وجل أو نابه ظلم أو اعتداء.

نعم لقد هجر ذلك السيف غمده سنيناً ليست بالقصيرة وصال فى صفحات المجد وجال حتى أعيا فكرهه غمده عند ما تصببت من جبينه الدماء...

وماهى إلا سويعات عابرة حتى قطع عليه توديع القمر إياه كل ماكان سابحاً فيه ومحلقاً فى خياله مع خيوط أشعته الساحرة إلى حيث يبدو الجبل أمامها بعزته وجبروته وقوته فيقطعها عن الوصول إلى الشيخ وربوته وخيامه... ووجد الشيخ نفسه أمام اطلالة الفجر فإذا بالنور يطارد فلول الظلام وإذا بأصداء أناشيد العصافير تترد وكأنها سلسلة على صفاة ملساء تقرع الآذان فتملأ النفوس بصوتها ورنينها. وحانت منه التفاتة على أثر وقع أقدام فى الغسق... انها أشباح مقبلة نحوه تتراءى للناظر وكأنها فى اجتماع وافتراق.. رأى تلك الأشباح تتخبط فى غلس الفجر فنهض من مضجعه إلى حيث الثلاثة الأشباح التى رأى أقدامها تغوص فى رمال الصحراء فتتثاقل بالمسير وماهى إلا بضع خطوات حتى وقف الشيخ أمامها.. إنه لم يصدق نفسه فتحسس بيده عينيه لعله يكون فى حلم. لم لا؟؟ وقد رأى رفيق صباه وأنيس وحدته فى صغره ابن جارهم الشيخ (ثابت). لقد أتعب راحلته أياماً فى سبيل العثور عليه ورؤيته. لأنه منذ ذلك اليوم الذى توفى فيه والده لم يعلم بجهته. ولم يعلم إلى أى مربع من مرابع العشب كان مسيره.. لقد حارت فى عين كل منهما دموع فرح اللقاء. وكثيراً ماتكون الدموع علامة للفرح عند اللقاء بدل الابتسام وتعانقا عناق الأخوة الأشقاء. وامتلأ قلب الشيخ فرحاً شديداً فبادر إلى إكرام ضيفه وزوجه وابنته وحينما رآهم قد ارتدوا ثياباً رثة ظهر منها أن الفقر والعوز نالهم منه الشيء الكثير فذهبت المواشى وتبدل الحال من الغنى إلى الفقر ومن العز إلى الذل بادر إلى تغيير مظهرهم على الفور بملابس جديدة واستيقظ أهل الحى جميعاً بما فيهم أبناء الشيخ الثلاثة الذين حيوا جار أبيهم فى القدم ورفيق صباه أيام الطفولة ــ وبالغوا فى الإكرام والتحية له والحفاوة

بـه واعتبروه أخاً شقيقاً لأبيهم ـــ والدهم ـــ الذى رأوا منه مبالغة ليس لها حدود فى الـكـرم مع هـذا الإنسان حيث عمد إلى ماشيته فأعطى نصفها لذلك الضيف الجديد ولم يـقـف الأمـر عند هذا الحد بل اقتطع له نصف بيته الذى تربع بقية البيوت فظهر فى وسطها كأنه علم شاهق بين مجموعة سلاسل جبال وتلال مبعثرة..

ودار الـزمـن ومـرت الأيام تباعاً والشيخ لا يألوا جهداً فى مزيد الإكرام والتقدير لـذلـك الـرجل الذى بادله الحب والأخاء والمودة والصداقة. تلك الصداقة التى لم ينل منها الصدأ على مرور السنين والأيام... وفى الليالى المقمرة من مساء كل يوم يطيب الـسـمـر فـيـقـص كـل منهما قـصـته فى أعوامه التى أمضاها دون رؤية الآخر.. حقاً مـاأجـمـل أحـاديث الـعـقـلاء عـنـدمـا تـشنف الآذان بما حملته صفحات الماضى المليء بالبطولات والأعاجيب..

مـرت سـبعة أعوام بعد مجيء الضيف الجديد فزادت ثروته ونمت ماشيته وعاد إلى الحالة التى كان عليها من الغنى والسعة بفضل الله تعالى ثم بفضل هذا الشيخ الوفى..

وفـى ليلة من ليالى الخريف كانت الجوزاء تطل من على قمة عالية تتوهج فترسل أشـعـة بـاسـمـة عـلـى تـلك الربوة أتت إحدى بنات (ثابت) جار الشيخ ـــ إلى أبيها مـكـدرة الخـاطـر مـكـسورة الوجه باكية العنين.. أتت إلى أبيها بوجه قد علاه شحوب الخجـل شـاكـيـة إلـيـه أصغر أبناء الشيخ لمضايقته إياها ومحاولة الاعتداء على عرضها مـرات ومـرات.. إنـه الإبـن الأصغر الذى وضع الجهل على رأسه علمه وارتكب هواه وأطاع شهوة نفسه ومازين له شيطانه..

إنهمرت الفتاة بالبكاء أمام أبيها وهو يهدىء من روعها فتردد الفتاة: (لقد وقف لى بالمرصاد فى كل يوم ولم أعد أقدر على مقاومته. وقف لى كذئب مفترس يتلمس فرص الهجوم)..

صـرف الـوالـد ابنته وقلبه يتقطع من الغيـظ على ذلك الشاب المستهتر. وهم بأمر ولـكـن تـقدير الشيخ له وفضله عليه ونعمته التى يعيش، فيها قد كبلته وألجمت فاه عن مـكـاشـفـة الـشـيخ بـالحـقـيـقـة لعلمه بأنه لو اطلع على الامر لفتك بابنه العزيز عليه



القريب من نفسه ولكن ماالعمل؟ لم يعد الرجل يطيق تلك الحياة التى يرى فيها كرامته توشك أن تداس فى التراب...

وبعد النظر فى هذا الأمر على مختلف أوجهه قرر فى نفسه الرحيل. لم يجد حلاً غير هذا وهو أسلم حل رآه... ومع تربع الشمس فى وسط السماء استأذن الرجل الشيخ فى الرحيل إلى دياره زاعماً أن أمطاراً هطلت عليها وعشباً قد عم أرجاءها واشتياقاً أقلقه إليها. وقدم له آيات الثناء والتقدير والاعتراف بالجميل وحسن الصداقة وغاية الوفاء...

ألح الشيخ على جاره ــ ضيف السبع سنين ــ بالبقاء وبيان سبب عزمه على الرحيل ولكن الإجابة كانت تأتيه فى كل مرة بأن الشوق إلى الديار والعشيرة. وعبثاً حاول الشيخ أن يثنيه عن عزمه ويعدل عن رأيه. فلم يستطع وأحس بحرقة لهذا الفراق وبصدمة لهذا الخبر المفاجىء والقرار السريع..

ومع سويعات الأصيل من اليوم نفسه غادرت القافلة التى تحمل ذلك الجار العزيز بعد وداع حار ودموع غزيرة. وحزن الشيخ حزناً لا مثيل له وعم الحزن كافة رجال ونساء الحى وشبابه بما فيهم الإبن المراهق الذى كان هو السبب المباشر فى كل هذا...

استلقى الشيخ على فراشه لينام ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة حيث هجره النوم وبدأت أفكاره طوال الليل تجول وتمعن فى حادثة الرحيل هذه وأدرك أنه لابد من سبب لها يكمن خلفها وهو لا يعلمه.. انه يعرف صديقه حق المعرفة فهو الرجل العاقل الحصيف الذى يقدر كل شيء ويحسب لكل حدث حسابه. كانت زوجة الشيخ تراقبه طوال الليل لأنها كذلك لم تنم وبدأت فى حديث مع زوجها تهون عليه الأمر وتنتقل به من حديث إلى حديث وأحس الشيخ من حديثها أن رائحة سبب الرحيل تفوح من أحاديثها تلك. فتظاهر لها بعدم اهتمامه بالرحيل هذا خاصة وأن الرجل هو الذى قرره من نفسه وبعد هذا لا يهمه من أمره شيء. وهنا أفضت الزوجة المسكينة سراً هو محور دائرة تفكيره. حقاً ماأصعب كتمان السر على النساء إذا استودعن إياه..

إنها تعرف القصة بكاملها حيث اشتكت إليها ابنة الرجل قبل أن تخبر أباها. فقصتها على زوجها عن حسن نية ولم تقدر عواقبها ونتائجها...

استمع الشيخ إلى زوجته باهتمام فكان حديثها عليه أشد من وقع الحسام وعرف منها تفاصيل القصة وأدرك أنها السبب المباشر لرحيل أعز إنسان عليه وهنا تظاهر لزوجته برغبة عيونه المقرحة من السهر فى النوم وأمرها أن تنصرف عنه وأضمر فى نفسه أشياءاً وأشياء لأعز ابن عليه وأغلى شيء عنده... انه يحب هذا الفتى و يوليه من العناية والحب الشيء الكثير دون أخو يه ولكن عاطفة الحب هذه والأبوة سرعان ماتذوب عندما يحس الرجل أن كرامته تهان أو عرض من احتمى بجواره ينتهك. ان الصحراء وتقاليدها لا ترضى هذا وقد ربت فى أولئك الناس كل معانى الشهامة والنبل والوفاء والتضحيات.. فماذا يعمل أمام أمر كهذا وهل يرضى خاصة عندما علم بالقصة.

إن هذا هو البلاء المبين والمصيبة الكبرى. إذاً ماالعمل لابد من التخلص من هذا الشر ير. وجاء الصبح وأرسلت الشمس أشعتها على الكون وأخبر الشيخ أولاده أنه عازم على القنص والصيد فى هذا اليوم وأن رفيقه فى هذه الرحلة هو إبنه الأصغر. وفرح الشاب بذلك أيما فرح ولم يعلم أن القدر له بالمرصاد وأن نهايته قد حانت على يد والده العطوف عليه المحافظ على كرامته والوفى لصديقه وجاره..

وماهى إلا خطوات وخطوات فى مكان خال بعيد عن مضرب الخيام حتى سدد الأب ضربته القاضية إلى ابنه فألقته صر يعاً... نعم سقط الشاب صر يعاً بعد أن أجاب على أسئلة امتحان والده دونما شعور منه وإحساس.. تلك الأسئلة التى أدانته بمحاولات ومحاولات لهتك عرض ذلك الرجل الطيب ومحاولة دوس كرامته وإلقائها فى التراب. وعلى الفور بادر الشيخ فى وضع ابنه فى كيس جثة هامدة لا حراك بها وقد تصارعت فى نفسه حنو الوالد وعطفه ووفاء العربى وشهامته. وسالت دمعة ساخنة من عينيه رغم ابائه وصلفه وثورات نفسه وعاد إلى الحى وأظهر لأمه بأن ابنها ذهب للقنص والصيد بمرافقة بعض الشباب ولم يعد إلا بعد شهر ين كاملين...

صدقت الأم المسكينة الخبر وآمنت به. واستدعى الشيخ ابنه الأكبر وسلمه الكيس الذى بداخله الجثة مع كيس آخر مليء بالدنانير وأخبره أن هذين الكيسين كانا أمانة عنده لجاره الذى رحل بالأمس ونسيهما عنده وحثه على أن يجد فى المسير ويسرع الخطى ليلحق به ويسلمهما له ومن ثم يعود فى الحال...

وانطلق الفتى على راحلته انطلاقة السهم يكاد يقطع النجاد والوهاد.. انطلق الفتى وشيء واحد يدور فى مخيلته ذلك الفرح الغامر الذى سيملأ نفس جارهم عندما يراه وحنوه عليه وابتسامته ومرحه معه دائماً...

لم يدر بخلد هذا الشاب أنه يحمل جثة أخيه الذاهب إلى الصيد.. وتتابعت ساعات المسير دون شعور أو ملل أو إعياء اللهم إلا قطرات من الدموع تنسكب من عيني راحلته. هذه الراحلة التى كأنها عالمة بما تحمل فتسرع الخطى لتؤدى الأمانة قبل أن يصيبها العطب حتى لايشعر راكبها بالخبر فيحدث مالاتحمد عقباه... وواصل الشاب سيره دون أن يريح هذه الراحلة التى لاحظ منها سرعة عجيبة لم يتعودها منها من قبل. وبعد مسير متواصل وصل إلى جارهم المرتحل قرب بئر ماء يستقى فقابله الآخر بدموع غزيرة بللت لحيته.. لقد عرف القصة لأول وهلة يرى فيها الشاب مقبلاً. وعرف أن السر قد أفشى إلى الشيخ وبفرائص مرتعشة وقلب محطم ونفس منكسرة تسلم الراحلة وماعليها وهدأ من روع الشاب الذى ألح فى السؤال عن سبب البكاء والحزن. ولكن الرجل عندما عرف أن الشاب لا علم له بالخبر أجابه أن سبب بكائه ونحيبه هو الشوق إلى والد الفتى والعرفان له بالجميل والوفاء. ولبث الشاب بعض الوقت وودع جارهم وعاد من حيث أتى براحلة أخرى غير الأولى حيث بقيت الأولى بحملها حتى ذهب الشاب...

وهنا تظاهر الشيخ لأهله أن الراحلة وماعليها وديعة عنده منذ سنين وأنه سوف يذهب بها إلى من يحفظها عنده مادام جاره الشيخ قد أرسلها له...

وسار الرجل بالراحلة مسيرة نصف يوم لكى يبعدها عن الأنظار وأناخها وأخرج مافى الكيس ويالشد هول مارأى وعظيم مصيبته عندما أخرج الجثة... لقد بكى

بكاء مرا احترق له قلبه وتقطع منه فؤاده. وندم حيث لاينفع الندم.. ثم واراها التراب بجانب شجرة كبيرة تغرد عليها العصافير البر يئة قرب جدول ماء. وعاد بعد ذلك بأجفان مقرحة وجسم قد براه الذهول وأعيته المصائب. وأقام بأهله في واديه المخضر هذا ثلاثة أيام يسهر فيها الليل مع النجوم و يشهد احتراق قلبه لما لاقاه من صدق الوفاء الذى عجز كل العجز عن أن يجد له حدوداً...

وأخيراً وبعد أن قلب الأمر على مختلف وجوهه قرر العودة إلى مرابع جاره الوفى الشيخ المحنك وتحت ستار الليل استيقظ الشيخ فإذا بالقافلة التى سارت قبل بضعة أيام قد أتت تحمل المتاع وتقصر الابواع وتحط ماعليها... فيتعانق الرجلان والبكاء والحرقة و يلوم الرجل ذلك الشيخ على عمله و يعترف له أنه الجانى الوحيد على الشاب حيث لم يخبر والده بالقصة بالطر يقة الملائمة، ووضع نفسه بين يديه ليقتص منه... ولكن الشيخ سرعان ماثارت ثائرته وأقسم على جاره أيماناً غليظة ألاّ يظهر ذلك الخبر فى الحي ويأسران السر فيما بينهما لينتحر على أشواك الصبر وأديم الوفاء...

وعاش الرجلان مع بعضهما عيشة الرجال الأوفياء فزوجا ولديهما ببنتيهما وأظهرا فى رجال القبيلة بعد انتهاء الزواج أن شابها الذاهب للصيد قد أغار عليه أسد فافترسه.. وتمر الأيام لتشهد ضروباً من الشجاعة والوفاء بين هذين الرجلين حتى غادر الشيخ إلى دار الآخرة.. بعد أن سجل فى صفحات المجد أروع مثل فى الوفاء وأنبل صفة فى الشهامة وأعظم حق فى الجوار...

أستاذ الجيل

أستاذ الجيل

فى ليلة من ليالى الشتاء والرياح تعصف بشدة متناهية والظلام يخيم على تلك المدينة الهادئة والسكون يطبق على أحيائها وجميع مابها من دور. كانت هناك دار تشرق فيها البسمة بقدوم مولود جديد فيها... لقد فرح الوالد بهذا المولود الذى كان ثالث مولود له فى هذه الدار المتواضعة لم يكن ذلك الأب من ذوى اليسار بل كان رجلاً فقير الحال ومع فقره كان شديد الحرص على تربية أبنائه تربية صالحة ليسيروا فى الحياة السيرة الحسنة والطريق الأمثل.. وتمر الأيام بحرصه وشدة تعلقه بأبنائه وتعليمهم فحفظ أصغرهم الذى كان الثالث من بين أخوته القرآن وعمره لايزيد على أحد عشر عاماً فى كتاب الحى وتعلم القراءة والكتابة مما أثلج صدر والده وزاد من سروره وافتخاره به وتشاء قدرة الله على الابن الأكبر لتخطفه يد المنون وتبعه الابن الثانى بعد مدة وجيزة ولم يبق لذلك الوالد سوى ابنه الأصغر الذى زاد تعلقه به وحرصه عليه...

ولذلك فلقد حظى الإبن بعطف أبيه وأمه لأنه صار وحيدهما بجانب أخت له تكبره بسنوات وأعجب الوالد بنجابة ابنه وثناء أستاذ (كتاب) الحى عليه ولكنه كاد يطير لبه عندما أسر إليه الأستاذ أن بصر ابنه ضعيف... لقد فوجىء بهذا وزاد قلقله وكبرت مصيبته ولم يدر ماذا يفعل. فالطب كان فى مهده ولم يدر كيف حلت هذه المصيبة فى وحيده الذى أولاه من الحب الشيء الكثير. وبعد تعب وعنت شديد وكثرة استفسارات عديدة يقرر الوالد الفقير أن يرسل ابنه إلى مصر للعلاج ولقلة ذات يده ولما امتاز به ذلك العصر من طيبة وبساطة وحب للخير والتضحية من أجل الآخرين يرسل الوالد هذا الابن إلى صديق له هناك الذى هو الآخر تولى بحرص استقبال الطفل الذى لم يتجاوز عمره آنذاك الخامسة عشرة من العمر.. لقد كان تأثير المرض على الوالد شديداً وأشد منه كان تأثيره على الإبن. انها مفاجأة وصدمة

كبرى لشاب كان ينظر إلى الكثير من الآمال العريضة التى يتطلع إليها ولكن ماالعمل وإرادة الله فوق كل شيء...

ويتردد الشاب على الأطباء ويتحدد موعد له فى يوم معين فى مستشفى كبير. وتحين ساعتها للكشف عليه ويفاجأ بوجود أحد عشر طبيباً للعيون كلهم فى انتظاره ويبدأ الفحص من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثانية بعد الظهر والأطباء يتناوبون هذا الشاب فحصاً ومعاينة وتدقيقاً حتى أصيب بالإعياء وتصلبت رقبته من شدة تلك الساعات الطوال، ويجتمع الأطباء ويقارنون تقريراتهم ببعضها ويقررون بالإجماع أن لاعلاج لهذا المرض عندهم. وهنا تعظم المصيبة فى نفس الشاب ويسيطر عليه اليأس ويأخذ القلق من نفسه كل مأخذ فالبصر قد ذهب رويداً رويداً وماذا يفعل؟ وكيف يعود إلى أهله وعودته إلى والده تعنى بقاءه فى ركن لا يستطيع أن يتحرك منه؟ إذ لا توجد يومها مدارس للمكفوفين فى بلاده. وتسيطر عليه الحيرة وبمضى أياماً عدة وهو لم يذق للنوم طعماً.. انها كارثة عظيمة وبلاء مستطير وفى خضم متاهات تفكيره أشار عليه كثيرون أن يطلب العلم ويلتحق بالأزهر ففيه المسكن والمكافأة التى يستعين بها على سيره فى الدراسة وبسرعة استجاب لهذا الرأى فيلتحق بالقسم العام الابتدائى بعد امتحان لجنة على مستوى كبير..

كان هذا فى أوائل عام ١٣٥٢هـ وبعد القبول يفاجأ بمواد لاقبل له بها فى القسم الابتدائى فهناك شرح الكفراوى على الأجرومية وشرح الأزهرية ثم قطر الندى وشذور الذهب والجوهر المكنون فى البلاغة وغيرها من بقية المواد التى على هذا المنوال.. ولكن بتوفيق الله تعالى ثم بإصرار وعزم وكد ومثابرة مريرة وصبر وجلد وتحمل مضت الأربع السنوات وعقد الإمتحان وكان النجاح باهراً لهذا الشاب البصير ثم تلتها أربع سنوات أخرى للقسم الثانوى وبنفس الروح الوثابة والقلب الطموح والبصيرة النفاذة يجتاز امتحانها بعد أربع سنوات أخرى ويحصل على الشهادة الثانوية رغم ماحصل فيها له من قلق وحزن وألم وحرقة بموت والده حيث نقل إليه خبر وفاته وهو فى الثانية الثانوية ولكن ماالعمل أيضاً وماذا سيعمل فى والدته وأخته اللتين بقيتا تنتظرانه وتتطلعان بشوق إليه وكان عليه أن يوفر من المكافأة ليرسل لهما مايقتاتان



به فى الوقت الذى هو فى أمس الحاجة إلى هذه المكافأة البسيطة التى لا تكاد تذكر... المهم أنه استطاع أن يقاسى أنواع الحرمان و يقابل صنوفه بعصامية فذة ونفس طموحة أبية حتى حصل على الثانوية. وتسير به المسيرة نحو كلية أصول الدين بالأزهر وهنا و بعد القبول بها يثقل الحمل فى المصروفات والنفقات فيقرر أن يلتحق ببعثة بلاده التعليمية لكى يجد من المكافأة مايستطيع به مواصلة المسيرة فى بقية سنوات دراسته. ومن عجائب الصدف أن تحدث المفاجأة السارة دون تعب أو مشقة فى هذا الموضع حيث كان هذا الشاب الطموح يسكن فى القسم المعد لسكن الطلاب وإذا به يفاجأ بحضور رئيس التفتيش بمديرية المعارف آنذاك إلى مصر ثم يصمم أن يزور الغرفة التى كان ساكناً بها وقت أن كان طالباً بالأزهر فإذا به يجد فى غرفته وفى مكان سكنه هذا الشاب العصامى فلما أن عرفه واستعرض موضوعه فاستلم الوثائق منه وواعده خيراً و بعد سفره بوقت كاف يأتى إليه خطاب يفيد بأن الالتحاق بالبعثة متوقف على نجاحه من الأولى إلى الثانية وهذا يعنى أن لامجال من الكد والصبر والمعاناة لسنة كاملة أيضاً.. ويمر العام بكامله و يلتحق فى بداية الثانى بالبعثة وهنا يتنفس الصعداء و يسير فى الدراسة رغم القسوة التى امتازت به المواد فى ذلك الوقت... وفى صبيحة يوم غائم من خريف عام ١٣٦٩هـ كان اسم هذا الشاب الذكي من بين خريجى كلية أصول الدين بالأزهر و يومها كان انتصاره لنفسه رائعاً. لقد أحس بنشوة انتصار لامثيل لها. أحس أنه قد حقق آمالاً ليس لها حدود فى نفسه فدفعه طموحه إلى أن يلتحق بتخصص الدعوة والإرشاد وهو تخصص بعد الكلية بسنتين فحصل عليه وعندها تذكر موطنه وطارت نفسه إلى بلاده التى غادرها منذ زمن ليس بالقصير ولكن وقبل السفر يفاجئه أحد أصدقائه بخطابه المؤلم الذى يفيد بقوله: لا تحضر إلى هنا فلا يوجد لك عمل لانك كفيف. وهنا كانت مصيبته كبرى وعمقها أشد ووقعها أليم ومحرق... انها مصيبة عظمى وكارثة حطمت كل آماله وبات يفكر و يفكر. ماجدوى هذه السنوات الطوال وهذا الصبر والآلام والحرمان؟ ماهى الفائدة التى جنيتها؟ وبماذا أعود وكيف أستطيع المساهمة فى خدمة بلادى إذا كان الأمر كذلك؟ ولكن بقلب ملىء بالثقة بالله تعالى ونفس راضية مطمئنة سكت على مصيبته هذه وبعد أيام قلائل من هذا الخبر الذى أطبق بثقله

المظلم على نفسه لولا شعاع يقين كان بداخله... بعد أيام أتى إلى مصر مدير عام المعارف آنذاك فزاره هذا الشاب وعرض عليه المشكلة فأوضح له أن لاصحة لهذا وطلب منه إنجاز أعماله وأوراقه ليسعى فى تعيينه مدرساً... وهنا أشرقت الآمال من جديد و كاد يطير من الفرح لأن هذا يعنى أن مساهمته فى الخدمة ستكون كبيرة وأن سنوات الحرمان التى قضاها ستؤتى أكلها. وسيجنى ثمار كده وتعبه وصبره وجلده. وهو بهذا لن يكون رهين البيت ليل نهار وسيستفاد من علمه الذى أمضى السنوات الطوال فى تحصيله. وبقى هناك ينتظر صدور قرار التعيين. و يطول الانتظار وتضيق الأمور من جديد و يبدأ اختناق جديد ومشاكل معقدة أمام هذا الشاب الكفيف. فالداخلية تطالبه بالسفر ومغادرة مصر لأنه قد أكمل تعليمه والبعثة منعت الراتب لأنه قد تخرج وليس لديه مايسافر به وكيف يسافر والتعيين لم يصدر بعد؟ انها أمور معقدة. ولكى يفك هذا الاختناق التحق بتخصص التدريس وهو الآخر تخصص للطلاب المتخرجين من كلية الشريعة وأصول الدين يتحصل على شهادته بعد سنتين من التخرج من الكلية. وبعد التحاقه به وفى ذات مساء يأتى اليه ساعى البريد يحمل مذكرة تعيينه مدرساً بالمعهد السعودى بالمدينة ولكن لسوء الحظ وقبل وصول المذكرة هذه أرسل طلباً يطلب الموافقة على إكمال دراسته يتخصص التدريس الذى بدأه ومع غمرة الفرح بالتعيين تأتى عقبها بيومين مذكرة الموافقة بالبقاء حتى الانتهاء من تخصص التدريس وبهذا تمضى السنتان و ينال هذا الشاب الكفيف الشهادة العالمية من الأزهر مع شهادتى التخصص فى التدريس والدعوة والإرشاد بصبر وجلد وقوة عزيمة وإيمان راسخ ورضاء نفسى عجيب...

ومع بداية العام الدراسى ١٣٧٤هـ عين ذلك الشاب الطموح مدرساً بالمعهد العلمى السعودى الذى كان فى ذلك بمثابة جامعة بالبلاد لما به من مواد مركزة وعلوم غزيرة. وكان ثالث ثلاثة يحملون مؤهلات جامعية فى ذلك الوقت بالمدينة المنورة واحتل مكانته فى التدريس فى الصفوف العليا بالمعهد العلمى ومعهد المعلمين...

وخلال ثلاثة وعشرين عاماً قضاها ذلك الرجل الفذ العصامي فى التدريس يعلم و يشارك فى إعداد جيل المستقبل لهذه البلاد، كانت حصيلته كبيرة وكان

عطاؤه جماً وكانت تربيته موفقة لطلابه حيث علمهم الصبر والجلد ونهلوا من علمه الغزير وتجاربه الكثيرة وإصراره وصبره وتحمله الشيء الكثير..

فهو يعتبر من القلة النادرة التى أقنعت الناس كل الناس بسيطرة شخصيتها بالعلم والتعقل والأدب والأخلاق السامية والنبل والصفات الحميدة حتى صار يغبطه الكثيرون لسمو أخلاقه ورجاحة عقله وغزارة علمه...

وبعد هذا العطاء الخير خلال ربع قرن من الزمان وبعد تلك التضحيات والصبر وتحمل أنواع المصاعب والعقبات يرى هذا الرجل أن الوقت قد حان لكى يستريح من عناء خمسة وستين عاماً فيتسلم خطاب الشكر على مابذل فى سبيل العلم من عطاء جم وتضحيات فذة مع الاعتراف بفضله أستاذاً للجيل ومعلماً من الطراز الأول... إنه فضيلة الشيخ محمد سعيد أبو سيف.

عشرون عامًا من الإنتظار

عشرون عاماً من الانتظار

لا عليك أيتها الزوجة الوفية أنني أشكر الله تعالى الذى يعلم ما أنا فيه من صراع نفسى ومغالبة للحياة طيلة عشرين علماً على زواجنا. ثم أننى أشكر لك ذلك الصبر الذى يتجلى فى كل لحظة تأفف ترينها طوال هذه المدة. أشكر لك صبرك وحنانك وعطفك ثم قوة الأمل فى الله تعالى الذى طالما ذكرتنى بما للصبر من جمال وبما للأمل والرجاء فى الله تعالى من قوة تربط العبد بخالقه وتجعله ملتجئاً إليه مستعيناً به فى كل نائبة من نوائب الدهر وفى كل مايحس به من مرارة الحرمان عندما تلهث نفسه مشاغل الدنيا وزينتها.

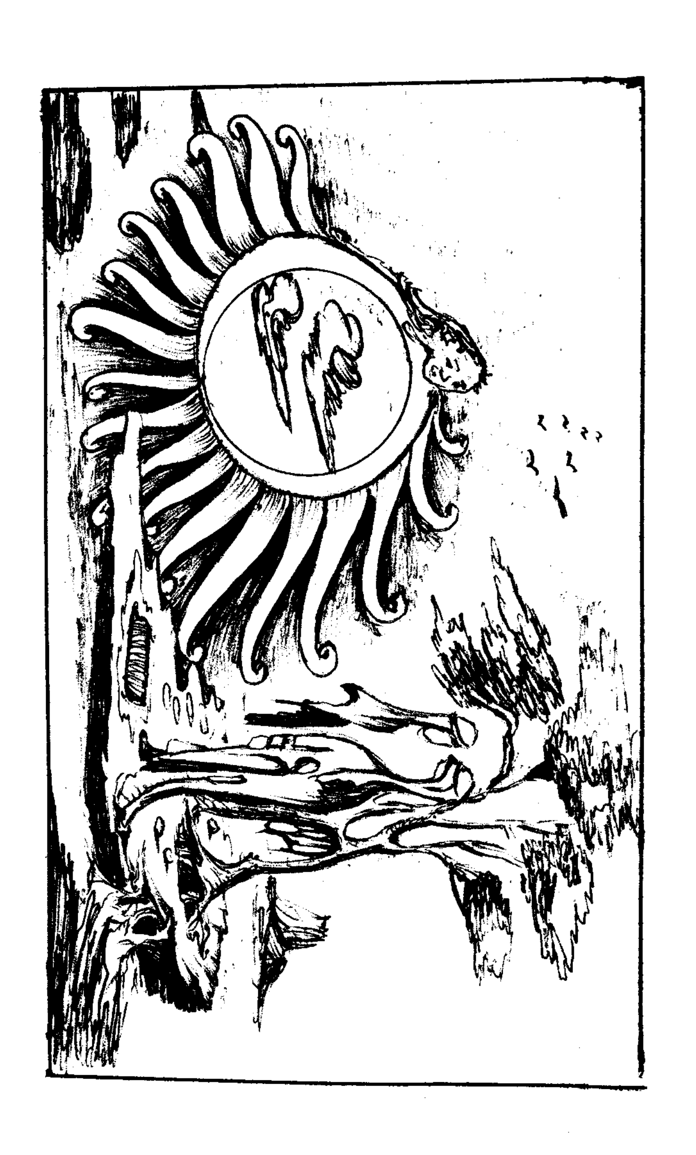
إن هذا اليوم وهذه اللحظات التى تتأملين فيها. هى بمثابة أول يوم فى حياتنا الزوجية التى بدأناها منذ أمد بعيد كانت السعادة ولا تزال تخيم على بيتنا الصغير ولا نحس لأن شيئاً ينقصنا. حقاً إن يومنا هذا ولحظاتنا هذه تعلمين مدى انتظارنا لها وماعانيناه سوياً من أزمات نفسية من أجلها وكم كان تطلعنا إليها وكم أحدثت بيننا من سوء للتفاهم أحياناً ومن مناقشات وجدال فى بعض الأحايين. إننى اليوم أشعر بسعادة لاتوصف وقلبى يكاد يطير من الفرح وأحس فى نفسى أن كل شى أمامى يأتى إلى يحدثنى ويمازحنى وبالتالى يرفع التهنئة والحب والتقدير لك ولى على ذلك الصبر الذى صبرناه وعلى ذلك الأمل الذى كنا على ثقة بأنه سيتحقق رغم تلك الكلمات التى كنت أستمع إليها من كثير من أقاربى ومعارفى لقطع حبل ذلك الأمل الواهم فى زعمهم.. ولكن على أى حال قد أصبح أملنا حقيقة واقعة وتبددت من حوله غيوم القائلين وعواصف المتكلمين وآمال المغرضين..

قال كل هذا وهو بجانبها على سرير المرض بالمستشفى وهى تتلوى من الألم وتحاول إخفاء ماتحس به من أوجاع لأنها تعرف حساسية نفسه وتعلم مدى تأثير تألمها عليه. وترى أن فى إشراقة يوم جديد وأمل قريب التحققماينسيها كل ماعانت من

ألم وما أحست من حرقة ومرارة طوال سنين عديدة.. وفجأة وبينما هو يلحظ لونها المصفر ويحلق فى حركاتها الغير المتزنة و يتفحص قسمات وجهها المكفهر أقبلت الطبيبة مسرعة وأمرته بالخروج من الغرفة وأفهمته أنه لابد من إ جراء عملية لزوجته فى الحال وأن عليه الانتظار خارجاً أو الذهاب إلى عمله والعودة فى المساء إن أراد.. لقد وقعت كلمات الطبيبة منه فى أقصى أعماقه وأحس بأن نفسه تتمزق وأخذ يسأل نفسه ويحدثها حديثاً طو يلاً وقد خرج مندهشاً وفى لهفة وغموض...

بدت استفسارات وتساؤلات ماشأن العملية ياترى؟. ومن أى نوع هى؟ ثم ماذا تعنى العملية فى حالة كهذه؟ ولماذا هذه السرعة فى كلام الطبيبة وفى حركاتها؟ لابد أن الأمر خطير. وقد يكون على غير ماقدرت له وماكنت أظنه. ولابد أيضاً أن كلام الأطباء الذين سبق أن عرضتها عليهم غير صحيح أو أنهم يخفون عنى الحقيقة ربما لمعرفتهم أولاً احساسهم بانقباض نفسى ومابداخلها من اضطراب وتعقيد. وهنا حانت منه التفاتة فإذا زوجته المسكينة قد أحاط بها الممرضات من كل جانب على سر ير ليدخلن إلى جناح العمليات واندفع نحوها ولكنهن منعنه بشدة وسمع كلمات منهن لم يدركها لهول الموقف فى نفسه وعمق التأثير فى قلبه. وعند باب غرفة العمليات لاحظ نظرة زوجته إليه أحس منها أنها نظرة وداع أو هكذا اعتقد لقد أحس بالفراق واضطربت فى نفسه لوعة وبكى بكاء مرا فى زاو ية من زوايا ممرات المستشفى الكبير.. وصار يتلفت كل من يخرج من الممرضات من ناحية غرفة العمليات تلك يسألهن بتلهف ولم يسمع منهن سوى كلمات الاطمئنان التى يؤمن سلفاً بعدم صحتها وانما هى فى رأيه أسلوب اعتاده كل من يعمل فى المستشفيات...

ومرت ساعات وساعات وهو ينتظر كلمات توجه إليه من أى إنسان مهما كان شأنه فى هذا المستشفى الواسع الأرجاء الذى يموج بالغادين والرائحين. ولكن شيئاً مما يتوقع لم يكن وأخيراً توجه إلى شرفة بالمستشفى تطل على شارع عام وبدأ يحاول قتل ساعات الصمت وساعات الانتظار التى تكاد تزهق عليه أنفاسه. وهناك بدت مخيلته تسرح فى استعراض المارين بالشارع وأنظاره تتطلع إلى كل شىء فيه محاولة منه للهرب مما يواجهه من واقع وما يحس به من ألم ساعات الانتظار الطو يلة. ومع تطلعه شرد فى ذهنه إلى الماشى البعيد ودارت فى مخيلته ذكر يات مرت صورها تباعاً كأنما



قد سطرت فى سجل حافل من التاريخ. حقاً انه لايزال يذكر تلك الأيام الجميلة التى كانت فى بداية حياتها الزوجة الحافلة بكل معانى الحب والوفاء.. يذكر ذلك الحنان وتلك المودة الصادقة التى كان يجدها دائماً من زوجته الطيبة القلب الصافية النفس النقية الوجدان. لقد كانت هذه الصفات التى أحبها فيها بمثابة الجسر الذى عبر عليه فى الصبر والجلد أمام مهاوى وإغراء الكثيرين لكى يتزوج أخرى طلباً لإنجاب الأطفال، نعم عشرون عاماً مرت على زواجهما وفى كل يوم منها كان شديد التلهف لمرأى طفل وديع يبدد ضياؤه تلك العتمة فى هذا البيت السعيد. كانت أمنيتها أن ينجبا أطفالاً يملأ صراخهم كل ركن فى منزلها الذى أطبق عليه الصمت سنوات وسنوات. لقد أخفى هذه الرغبة عن زوجته عدداً من السنين وهى بدورها تعرفها فى نفسه كما تحسها فى نفسها هي وكانت مصدر إحساس وقلق بين الفينة والأخرى لدى كل منهما. إن هذه الرغبة الملحة والتطلع المتلهف للأطفال كادت أن تحدث فرقة بينهما فى يوم من الأيام عندما عاد من عمله ذات مرة ووجدها واقفة على الباب وأوجس فى نفسه خيفة من ذلك الوقوف الذى لم يعتده منها ولكنها على الفور بددت ماانتابه من هواجس وماأحاطت به من شكوك عندما أوضحت له أنها تعيش مع عالم أطفال الجيران الذين تجمعوا أمام الباب ليلعبوا فى براءة وطهر وتسمع إلى مايدور بينهم من محادثات وتصرفات جميلة رائعة انه لا يزال يذكر تلك اللحظة التى تظاهر لها بعدم المبالاة بالأطفال قائلاً: مالنا ولهؤلاء الأطفال؟؟ إن أصواتهم فى المنزل تملؤه ضجيجاً وصراخاً وعويلاً وتحيله إلى حركة صاخبة يقل فيها الهدوء وتنعدم الراحة. وعندما أجهشت بالبكاء المر. لقد عرف يومها أنها تعانى فى نفسها أضعاف مايعانيه وأنها بوقفتها تلك لمراقبة تصرفات الأطفال لاتساوى شيئاً أمام ملاحظاته العديدة وسرحان تفكيره كلما رأى طفلاً يسير مع والده وقد اشترى له حاجيات ولعباً ويحادثه ويلاطفه بين وقت وآخر.. ان منظر الأطفال فى العيد يشده شداً ويحيل سعادته إلى كآبة وحزن فى داخل أعماقه. ولكنه كان دائماً شديد الصلة بالله دائم الدعاء له بأن يرزقه الله طفلاً من هذه الزوجة الوفية الصادقة يحس وجوده باكتمال سعادته فى منزله الوادع المطمئن. وكان كثيراً مايقلقه أصدقاؤه ومحبوه بحث بعضهم إياه على الزواج من أخرى وكان يتلقى كلماتهم بمظهر اللامبلاة مع احساسه العميق

بمدى تأثير مايقولون ومرارة مابه يتحدثون ومضت العشرون عاماً فى بدء الزواج و ذات يوم.. فجأة حدث ماكاد يطير له من الفرح عندما عرض زوجته على طبيب وأخبره بأنها حامل .. شيء مثير — للدهشة و باعث على الاستغراب. بعد عشر ين عاماً من الانتظار يكون هناك حمل؟ ياله من يوم مشرق ذلك اليوم الذى سمع فيه كلمات الطبيب ترن فى أذنيه بهذه الكلمات التى لم يعتد سماعها وهذه البشرى التى طالما انتظرها. وقبل قول الطبيب هذا وأسره فى نفسه ولم يبده لأحد ومضت الأشهر تباعاً وتسقط الزوجة مر يضة و يطول مرضها وتأتى ساعة اشتداد الألم و يفزع إلى المستشفى و يدخلها فيه. وهنا تبدو فى ذهنه تساؤلات: ربما أن ذلك لم يكن حملاً؟ لماذا يقول الأطباء أنها بحاجة إلى عملية؟ وحتى إن كان حملاً ربما أفقدها وأفقد الحمل معها. على أى حال لامجال للتفكير فى الحمل إن كان.. إننى الآن أر يدها وحدها طيبة معافاة. ياإلهى التجىء إليك وحدك وأطلب منك العون وأنت الأعلم بكل شىء. ولكن لماذا لم تخبرونى بشىء؟ لقد طالت ساعات انتظارى.. ماذا عملوا بها.. كيف حالها الآن؟ وتملكه القلق والحيرة وترك مكانه وصار يسرع يمنة و يسرة فى ممر المستشفى الطو يل تكاد عيناه تخرقان باب جناح العمليات لتستكشف ماوراءه ويحس بأنه ير يد أن يسأل كل أحد ولكنه لم يستطع.. وجف حلقه. وأسرعت ضر بات قلبه وصار يمشى بسرعة لايشعر بها بل لايشعر بكل من يسير حوله. وفجأة تخرج ممرضة و يسمع صوتها يرن فى أذنه كأنه حلم:

أنت ياهذا.. أبشر فقد أتاك مولود ذكر..وردد على الفور مولود؟؟ مولود؟؟ ولكن.. وأتي إليها مسرعاً وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه. و يقف أمامها وتنعقد شفتاه وتغطى الدموع عينيه قائلاً بصعوبة بالغة بعد أن جمع أنفاسه: وهى.. هى كيف حالها؟ وترد الممرضة على الفور غير منتبهة إلى مااعتراه من ذهول وما اختلط فى نفسه من صور الماضى البعيد وأحداث الحاضر الذى يعيشه.. ترد قائلة وقد أدارت ظهرها لتعود من حيث أتت: انها طيبة معافاة فلا عليك.. وهنا يترنح صاحبنا وسط ذلك الممر الواسع الملىء بالغادين والرائحين بعد أن انحط العبء الثقيل عن نفسه....

قائلاً الحمد لله

يوم العيد

يوم العيد

كان إنساناً مع كل الناس مع كل ماتحمل هذه الكلمة من معنى. توفى والده وترك له أخوة صغاراً. بل ترك له أعظم مسئولية ينوء بها عاتقه.. مسئولية الرعاية وتحصيل معاش أخوة لاحول ولاقوة لهم فى طلب الرزق والبحث عن مصادره.. وفوق ذلك كله ترك له والده ديناً يسدده عنه لمحقيه... لقد كان حملاً ثقيلاً أنهك قوى (فاضل) وهو الاسم الذى صمم الوالد على تسميته له يوم ولادته أنهك قواه طيلة أربع سنوات مضت منذ أن غادر الوالد هذه الدنيا إلى مثواه الأخير...

ومن أجل ذلك تحمل الشاب منذ نعومة أظفاره كل صعب وسلك كل طريق وصد عن كل كارثة تعترض له فى الحياة.. أنه يدرك جيداً يوم أن توفى والده ولم يكن لدى إخوانه مايعولهم به.. لذا قرر منذ ذلك اليوم أن يعمل بجهد وكد لايعرف الكلل ولا توهن عزيمته معوقات الحياة مهما كان نوعها..

لقد عمل فى أماكن عدة واستقر به المقام لدى مهندس للسيارات على شارع عام بالمدينة. عمل لا لرغبة فى العمل ولكن ليسد ثغرة كبيرة تركها الوالد فى حياة الأسرة بكاملها ومن اجل ذلك ترك المدرسة رغم كونه فى سنة دراسية نهائية ولكن ليس ثمة من مفر سوى أن يخوض غمار الحياة و ينزل لمعترك خضمها العظيم.. كانت سنه يوم وفاة الوالد لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر وذاق خلال المدة الماضية حلاوة الحياة وضاقت به الحياة أخيراً إلى أن يصير لدى صاحب الورشة الذى طغى البخل على كافة أعماله ومعاملاته. فنفسه لاتخلو من لؤم وقلبه لاينجو من حقد وحسد... حقد ليس على عماله فحسب بل على المجتمع بأكمله والدنيا بأسرها. يحصى الدقائق والساعات ويحسب لها ألف حساب فيحذف أجر كل ساعة تأخر أو غياب لمن يعملون لديه مهما كانت الأسباب والمسببات وكان أجر (فاضل) ضئيلاً جداً يتسلمه فى نهاية كل شهر يدفع نصفه لمعاش الأسرة ونصفه الآخر لسكناها ولهذا



حرص الشاب على عمله حتى لا تمتد يد الجشع لتحسم أى قرش من ذلك الراتب الضئيل...

يسرع إلى العمل فى الصباح الباكر و يعود إلى البيت فى المساء منهك القوى من عناء وعمل يوم مليء بالمضايقات، ولكن رغم ذلك كله لم تسر الأمور كما أرادها بل حدث مالم يكن فى الحسبان. ففى مساء أحد الليالى داهمت سيارة مارة (فاضل) المسكين فى طريق عودته إلى العمل.. . داهمته وكسرت ساقه وعلى الفور أدخل المستشفى ينزف دمه و يتلوى من الآلام... انها آلام المرض. وآلام أخرى تتضاعف حينما يتذكر إخوانه الصغار فى البيت حول أمهم وقد أقبل العيد عليهم وكل مافى حصيلته قد صرف على الفور فى أدو ية وعلاج ونحوه... انه يفكر تفكيراً عميقاً فى مصابه وفيما هو فاعله مع أولئك الصبية الذين ستمر عليهم ساعات العيد مفعمة بالأسى والحزن والحرمان.. وحتى والدته المسكينة كادت أن تجن حينما علمت بالخبر. إذ خيمت سحابة الحزن على قلبها ونفسها فأمطرت عيونها دمعاً غز يراً مليئاً بالحرقة والتأوهات الحز ينة... ومرت الأيام تترى وفاضل يعانى مصابه بالمستشفى والأسرة تعانى فقراً مدقعاً وحاجة عظيمة ماسة من العوز والفاقة. مر شهر الصوم بكامله وقبله ثلاثة أرباع الشهر والشاب نز يل المستشفى وأجره قد انقطع من أول يوم لم يحضر فيه إلى العمل.. وأتت ليلة العيد بكل مافيها من فرحة وحزن وسرور وحرمان. أتت ومع مجيئها أحست الأم بوطئتها العظيمة على نفسها مما دعاها إلى أن تسهرها منتظرة الفرج من لدن حكيم خبير. و يشتد بها الحزن و يعظم الأمر حينما يسألها الصغار عن ألوان الثياب التى سيرتدونها غداً مع أبناء الجيران وأى أنواع من الحلوى سيشاهدونها فى منزلهم؟ وكم من النقود سيأخذها كل منهم؟ انها كلمات حرقة وألم وحزن وهموم ليس لها حدود تسمعها الأم فى ليلة لا تملك شيئاً ذا قيمة بين جدران هذا البيت الحز ين...

أحس (فاضل) أن ليلة العيد قد أتت وتذكر كل شيء فى المنزل فتحسس قدمه فإذا هى قد التأمت قليلا فقام من فوره وشد وثاقها جيداً وخرج من المستشفى على مسئوليته.. خرج يلتمس فرج الله وعنايته العظيمة لايلوى على شيء سوى أن يشارك

العائلة أحزانها وحرمانها. وبينما هو يسير في الشارع في ساعة متأخرة من الليل يتوكأ على عصا إذ قابله أحد زبائن (الورشة) الذين يعرفهم حق المعرفة والذين قد أحبوه لما وجدوا به من إخلاص وخلق وتضحية في سبيل الآخرين. وعلى الفور استعان الرجل بالشاب في إصلاح سيارته المتعطلة على بعد أميال من المدينة. فدهش الآخر وكأن شيئاً لم يكن به ويتناسى مرضه ويذهب معه ليصلحها ويعمل جهده ومعرفته في ذلك وهنا تجود يد الرجل بأضعاف ماكان يتصور فاضل لتضحيته في ليلة كتلك بحالته التي هو عليها. فيطير قلب الشاب من الفرح ويذهب من فوره إلى السوق ويشتري الملابس لإخوانه ووالدته وكل شيء لازم للعيد... ومع أذان فجر يوم العيد وبينما كانت الأم ساهرة العينين محطمة القلب مقرحة الأجفان في زواية خاصة من المنزل إذ دخل فاضل الشاب المكافح يمشي على ثلاث ومعه كل هدايا العيد وملابسه فتطير من فرحة العيد منذ الصباح الباكر.

نافذة الصباح

نافذة الضياع

هناك فى الطرف الشمالى من المدينة وبجانب شجرة عظيمة وإلى جوار قصر أشم ربضت دار متواضعة تقطنها أسرة صغيرة... كان أحمد من بين من تضمهم هذه الدار. أنه أكبر فتى فى الأسرة ولشعوره بهذا لم يكن بالطالب الكسول ولا المتهاون ولم يكن فى يوم من الأيام أداة لنفسه تسخره لرغباتها، بل كان ذلك الفتى الذى تعرفه نفسه قبل كل شىء آخر. انه فيما مضى كان يفرض إرادته عليها ويجعل لها سياجاً لا تتعداه.

أما نتائجه الدراسيه فهى مشرفة بين زملائه ومحبيه طيلة دراسته الماضية.. ولكن فى ساعة ذهول ومع مرارة مايسمع أو يرى خرجت نتائج الامتحان ذات مرة بعد أيام عصيبة ولكنها فى هذه المرة على غير مااعتاد هو أو تعود الناس منه فى التقدم والفوز بالنجاح وإحراز قصب السبق بالأولوية بين زملائه أو أفراد فرقته ودهش هو نفسه وبدأت ساعة الحساب.

كان أحمد محباً للعلم ومكباً على دراسته يحرص على أن لا تفوته شاردة ولا واردة من كتاب أو درس إلا وقد ناجاها مراراً وتكراراً حتى إذا ماأعرضت عنه جملة أو استعصى موضوع على فهمه تناوله بقلمه حرفاً حرفاً تلخيصاً وتنقيباً وتحقيقاً فى مذكرات صغيرة وضع لها مكاناً أميناً بحيث تسمع دقات قلبه ونبضات فؤاده وهى أحب إليه من أى شىء آخر.

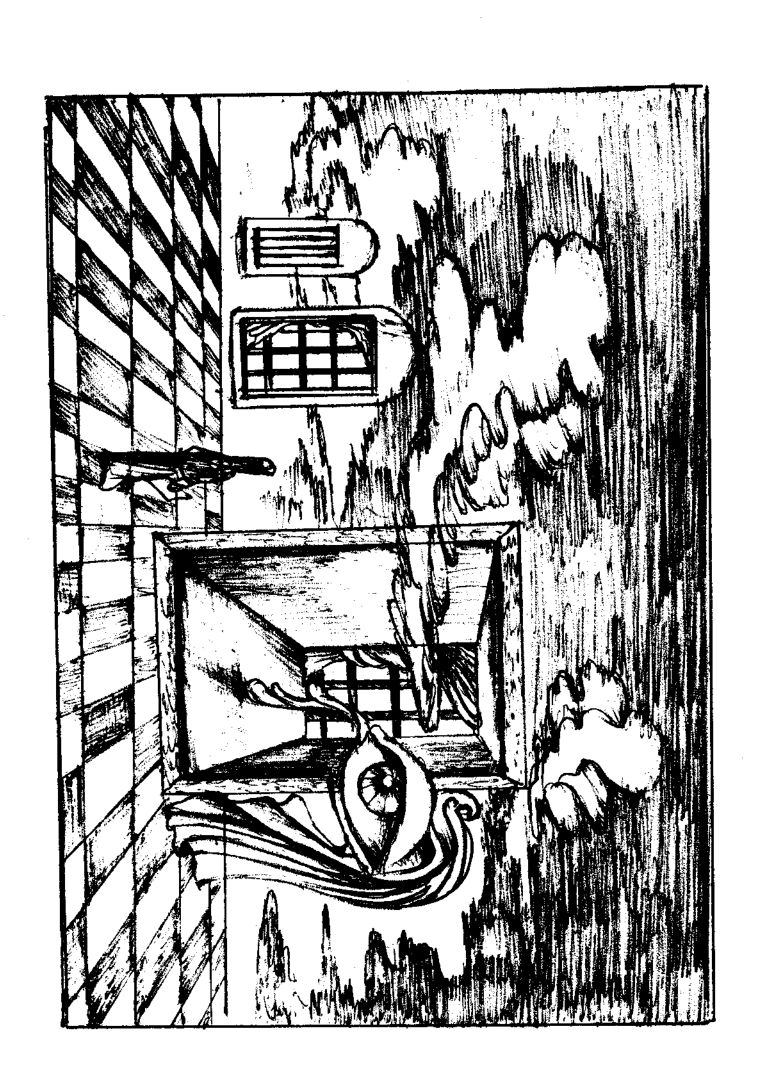
لم تكن السعادة لديه أكثر من إحراز نصر على موضوع يلخصه أو كتاب يقرؤه أو مسألة يتوصل بعد جهد لحلها.. ولهذا كان مرجعاً لزملائه فى كثير مما أدلهم عليهم أو أشكل على أفهامهم. وحتى أساتذته كانوا يعجبون لاكتشافه الأفكار والصغائر بين ثنايا أسطر الكتب لا تظهر إلا لمن أوتى صبراً وجلداً على التنقيب والبحث

المستفيض و يقدرون جهده وأخلاقه ومرحه. و يرون فيه معالم النبل من الفطنة. وكذلك والداه كانا يحبانه لحرصه على دراسته وكثرة اشتغاله بها فجهزا له غرفة خاصة لدراسته بفراش وثير وأدوات مكتبية جميلة وساعة حائط كبيرة بجانب نافذة تطل على حديقة صغيرة.

لقد كانت هذه الغرفة مثالاً للتنسيق وبها الإضاءة الكافية والجو الدراسى المريح. فإذا ماوصل أحمد هرع لغرفته تلك وعاش بين كتبه وواجباته المدرسية ولا يخرج منها إلا لقرب موعد الغداء أو استقبال زميل عزيز عليه. وهكذا كانت دراسته. يستذكر دروسه من بداية العام الدراسى و يعتمد على ماحصله من معلومات مركزة فى مذكراته الخاصة لمفاجأة الامتحان إذا بدأت القلوب منه تضطرب . ولذلك فهو يندهش حينما يرى بعض زملائه يتحدثون وجلين قبل الامتحان بأيام عن السهر والمذاكرة وصعوبة المواد وتعقيد المدرسين...

وتخرج نتائج الامتحانات فى كل مرة ويحتل أحمد مركز الصدارة بين زملائه الناجحين المتفوقين. وهاهو ذا يصل إلى مرحلة من مراحل دراسته الثانوية وكعادته يسير فيها بجد وإخلاص ومثابرة. وفى يوم من أيام الامتحان. وفى امتحان اللغة العربية بالذات وكان وقتها صبيحة يوم مطير حيث تنساب نسمة عليلة بين أزهار تلك الحديقة الوادعة يفتح أحمد نافذة غرفته ليستمتع بهذا المنظر البديع وقد غاب عن ذهنه أن يومه هذا يوم امتحان ويجول بناظره و يتطلع من بعد فإذا بكيانه يهتز وترتعش فرائصه ويحدق بنظره ليرى من ذلك البعد نافذة مفتوحة وعليها قطعة قماش زاهية كالتى على نافذة غرفته.. وهنا بدأت أفكاره تصول وتجول ووجدت نفسه فرصتها للحديث والانطلاق...

ياإلهى .. ماهذا انه شبح خلف ستارة النافذة. بل فتاة.. نعم انها فتاة جميلة فارعة الطول صبيحة الوجه.. انها تبتسم.. لقد أعجبتها هاهى ذى تناجينى بيديها بيعينيها... يالها من لحظة سعيدة هاهى الستارة يطل من جانبها وجه كالبدر فى الضياء.. ابتسامة مشرقة.. أسنان كاللؤلؤ.. ماأجمل تلك اليد التى تمسك بالستارة... وماأبهى تلك الوردة التى أراها.. ليتنى أمسك بيدى ذلك المعصم وأتلمس بأناملى ذلك.



الجيد.. ليتنى فتحت النافذة قبل الآن لأعيش مع النظرات الحلوة لتلك الوردة التى تخادعنى.. إننى أشعر بسعادة لا نظير لها...

ومع محاولة التعمق فى أبعاد هذه السعادة تهب رياح شديدة وكأنها صيحة انذار لأحمد لتلقى قطعة القماش التى تاه فكره فيها جانباً ويتضح ماخفى وراءها..

ويالشدة هوله وعظيم مصيبته حينما اكتشف أن بطل تلك المغامرة التى ألقته فى بحر لجى متلاطم الأمواج على تلك النافذة البعيدة قطة صغيرة...

نعم انها قطة تلهو وتمرح فى ابتهاج وسرور فى لحظة حاسمة بالنسبة لأحمد.. لم تعلم تلك القطة البريئة أنها قد جنت على أحمد ليعيد لأول مرة فى حياته سنة دراسية كاملة.. وتثور ثائرته وتضطرب العواصف بقلبه ويجن جنونه.. ويحس برنين أجراس الخطر لقلبه منذرة إياه بالضياع...

وهنا يرجع بصره كرتين فينقلب إليه بالحسرة من ساعة الحائط الكبيرة.

لقد مضى نصف ساعة على بدء الامتحان..

ويشعر بالخيبة وبمرارة الموقف المؤلم وبقلب ممزق يسرع أحمد إلى المدرسة فيجد الأبواب قد أغلقت ويرفض مدير المدرسة ادخاله إلى بهو الامتحان... وينصت من بعيد ليسمع صرير أقلام الزملاءه على أوراق إجابتهم.


أمنية وقدر

أمنية وقدر

النفس البشرية عجيبة فى رغباتها وطموحة فى آمالها.. بودها أن تستحوذ على كل خير وتشبع رغبتها من كل مايسر وبذلك تطلق عنان آمالها لتسبح فى الهواء. ولذا قد ترى المستحيل حقيقة تنسج بها خيوطاً حريرية فتفاخر غيرها وتتطاول عليه... ولكن أمام هذه النفس المسكينة قدرة عظيمة تطغى على كل آمالها وعلى جميع رغباتها. فتضع لمطامعها حدوداً لا تتعداها ولآمالها قيوداً لا تتجاوزها... تلك هى قدرة الله الذى أحسن كل شىء خلقه... ذلك هو ماطغى على تفكير (صابر) رجل القرية التى ربضت على طرف واد سحيق وعلى سفح جبل أشم ربضت وادعة هادئة تستبشر بالنور إذا أتى وتطمئن إلى الليل إذا خيم. تغرد عصافيرها على غصون الأشجار مطمئنة بالهدوء والاستقرار والحياة الوادعة البعيدة عن الضجيج والصخب ولذا فأنغامها شجية قرب المغيب تضفى بها على القرية نوعاً من الإحساس بالجمال والشعور بآيات الفن والإبداع..

رجل القرية (صابر) صاحب الدار الفسيحة التى علت سفح هذا الجبل علو الحاجبين من العين. تطل نوافذها على غابة كثيفة من أشجار النخيل التى امتازت بها قريته واشتهرت بجودة ثمارها وصفاء نسيمها ورقته.

لم تكن الدار متميزة عن غيرها من بيوت القرية اللهم إلا بارتفاعها عما حولها مما أكسبها جمالاً ومتعة عندما تكسوها تلك الأشعة الرقيقة التى تمنحها لوناً عسجدياً جميلاً فى صبيحة كل يوم وعند الغروب. وبالقرب من باب هذه الدار وقف (صابر) يتأمل الجبل الأشم الذى مسحته يد الربيع. وقف يتأمل هذا المنظر البديع. أشجار مخضرة ونسيم عليل وجبل عظيم. وشمس مائلة نحو المغيب. لقد اعتاد مثل هذا الوقوف لإعجابه بمنظر الطبيعة من حوله وأمام هذا المنظر الخلاب والطبيعة الباسمة من حوله تراكمت أحداث مزدحمة فى فكر صاحبنا... ذهبت به أفكاره فى بحر لجى مترامى



الأطراف واسع الجنبات من ماضيه البعيد. ذلك الماضى الذى يحمل له فى قرارة نفسه كل حب وكل اعتراف بالجميل ومع إغراق فى تفكير عميق لم يلبث أن وجد نفسه صبياً يرتع أمام والديه الذين مات أعطفهما وأرقهما وأحناهما عليه منذ نيف وأربعين عاماً... وجد نفسه الصبى الذى لا مزاحم له فى العائلة والذى لا يفارق أباه لحظة واحدة مما أكسبه ميزات قلما وجدت فى مثل سنه فى ذلك الوقت...

كانت سلسلة الذكريات ترد تباعاً فى مخيلة صابر يجد فيها لذة ومتعة وبعداً عما قد يكدر عليه صفوه من متاعب الحياة وعقباتها.. ومع رغبته فى متابعة ماأراد.. قفزت إلى ذهنه عبارة طالما سمعها من والده الكهل فى كل مناسبة عبارة يقول فيها: (كأنى بك ياصابر وقد رزقت أولاداً ينيرون هذه الدار وينشرون عليها رداء السعادة). ومع احتلال هذا القول بؤرة التفكير من نفس صابر ومع رغبته الملحة فى الوقوف طويلاً أمام هذه العبارة المحببة إلى نفسه والقريبة جداً من قلبه حانت منه التفاتة بتحديق من غير قصد إلى تلك القمة الشاهقة ليرى من بعد ومن على القمة الشماء شبحاً قطع عليه سلسلة أفكاره واحتل مركز الصدارة من نفسه وإحساسه وشعوره.

.. من على القمة الشماء وبينما كان صابرٌ واقفاً يتأمل أطل عليه شبح إطلالة هلال اخترقت أشعته طبقات السحب... إنه هلاله هو.. إنه ابنه الوحيد الذى تربع على عرش قلبه فاحتل مابين جوانحه من حب وعطف وشفقة ورحمة... ابنه الذى خرج منذ الصباح الباكر إلى هذا الجبل العظيم لكى يصطاد فيه كما هى عادته فى كل شهر مرة أو كلما عن له أمر أراده... إن صابر يحبذ هذه العادة ويمتدحها محاولاً غرسها فى نفس الصبى لإيمانه أن وحيده يجب أن يكتسب من صخور هذا الجبل الأشم الصمود والثبات ومن نسيمه العليل الرقة والعذوبة. ومن طيوره المغردة الصفاء والطهر. ومن مياهه العذبة النقاء والحياة. وأن الحياة بغير ثبات واتزان وصبر وجلد لا معنى لها. وأن الحب هو عماد الحياة فبه استطاع هو نفسه أن يسود هذه القرية. إذ لايضمر كرهاً لأحد ولاتبطن يده بمخلوق قط. أحب الناس فأحبوه وصار مجلسه مأوى لكل من عرفه برجاحة العقل واتزان التفكير وتقدير الناس...

عماده فى قوله الصدع بالحق مهما كانت مرارته. ولذلك كثيراً ماارتضاه ذووا الخصومات حكماً فيما بينهم وهم قانعون بما يفرضه على كل منهم. بل كثيراً ماشدت إليه الرحال لهذا الغرض. فإذا ماجلس فى مجلس صار هو حكمه ومن ثم الفيته الرجل الذى لا تلين قناته فى الحق. ولا ترد كلمته. وإذا كان بين أناس فى مجلس فكاهة أو سمر رأيته ذلك الإنسان المرح المتفائل الذى يعبق جو ذلك المجلس بحديثه الطريف وفكاهته الجميلة وأفكاره النيرة وكلماته التى تخترق الحجب إلى صميم القلوب فتبادله الأخاء والحب والانسجام...

إلا أن قلب صابر الذى يبدوا متدفقاً بالحيوية والتفاؤل والأمل لايزال جانب منه قد مسه الضر وأحس بحاجته الملحة إلى ملئه بأشعة النور ليكتمل صفاؤه ويخضر جانبه فتشع طمأنينته ويستريح فكره.. ضر طالما خلا به إلى نفسه وفكر فى عاقبة أمره وخرج من خلوه باستغفار لله وتوبة.

صابر يتطلع إلى اكتمال زينة الحياة الدنيا أمامه قبل الممات. فالمال لديه ليس بأمر ذى بال ولكنه فى حاجة إلى الأولاد... الأولاد الذين تتألق الدار منهم نوراً ويزدان بهم.الأولاد الذين يذودون عن حماه ويحيون ذكره بعد مماته ويشدون عضد أخيهم هذا الذى أقبل... كانت أمنية صابر أن يرزق بأولاد يقيم لهم من نفسه معلماً. ويجعل لهم هذا الدار مدرسة يخرجون منها وقد أعدهم للحياة ليكونوا جميعاً يداً واحدة إذا مااعترى خطب وكشرت الملمات عن أنيابها... ولكن القدر لهذه الرغبة كان بالمرصاد فقد أنفق الكثير والكثير من المال فى الزواج من النساء الواحدة تلو الأخرى ورغم ذلك كله كانت النتيجة حتمية بالنسبة له وهى عدم الإنجاب اللهم إلا وحيده الأول من أول امرأة تزوجها.

لقد أمضى سنوات طوالا وهو يفكر فى اليوم الذى يصبح لوحيده فيه أخوة يعاضدونه ويناصرونه ويشاطرونه هذا الحب الجم وهذه الشفقة العظيمة من قلب صابر الملىء بالحب والرحمة.. ولكن دون جدوى ولم يلبث أن وجد اليأس إلى قلبه سبيلا... اليأس الذى عاش صابر فى صراع معه داخل نفسه محاولاً أن يضفى عليه ثوباً قشيبا من التفاؤل والأمل مستنيراً بالإيمان العميق بمشيئة الله القادر على كل

شيء... وفي ذات يوم وبينما كانت الشمس ترسل أشعتها كالسهام ليحتذى كل شيء ظله وبينما كان صابر في طريقه إلى منزله بعد أدائه لصلاة الظهر في مسجد القرية استوقفه منظر لرجل وامرأة قادمين نحوه...

دهش صابر لما رأى عندما عاد من مسجد القرية إلى داره... إنه منظر محزن في هذه القيلولة من أيام الصيف، ابنا سبيل رجل وامرأة. رجل نحيل الجسم فارع الطول متصبب العرق قد علاه شحوب من أثر السفر وبرفقه امرأة وسيمة قد تعثرت قدماها من شدة التعب والجوع. انهما مقبلان نحوه يبحثان عن مأوى يستظلان به ومكان يجدان به لقمة يقيمان بها أودهما لتساعدهما على مواصلة السفر... انهما غريبان في هذه القرية قد كسرت أجنحتهما الغربة وبعد الطريق وعناء السفر وقلة ذات اليد...

وهنا لم يطل تفكير صابر. بل اندفع نحوهما... لقد رأى في هذه الساعة فرصته لخدمة الآخرين... إن إكرام الضيف والمبالغة في خدمته سجية ألفها منذ الصغر وعرفت عنه حتى دعى في معظم الا وُقات بها. ولا تكاد تمر ليلة إلا وكان البيت قد استأنس بضيف قد ضمه بين جدرانه يحس بعذوبة حديثه ويستريح لراحته..

اصطحب صابر الرجل والمرأة إلى داره حيث وجد فيه ليلة ممتعة كسيت بحلة قشيبة من المرح والفكاهة مقرونة بجميل القول وعذوبة المنطق..

ومرت ساعات الليل تترى وهوى كل حي إلى مضجعه حيث طاف سلطان الكرى على عيون الأحياء. اللهم إلا عيون صابر اللتان قد أعلنتا جفوة لا مثيل لها لذلك السلطان... ويالدهشة صابر عندما رأى ذلك السياج الذى قد ضرب بينه وبين الراحة والهدوء في تلك الليلة... انها أشياء كثيرة لا يعرف كنهها ولا يعى حقيقتها دبت إلى نفسه المسكينة التي أضمرت في قرارتها أن هناك سراً خفياً لا يعلم مكمنه ولايكاد يبين... أنه قلق في النفس وأفكار تتضارب كأمواج الخضم الزاخر.. وفوق ذلك كله هوة شاسعة لا ترى أطرافها. انه التفكير العميق وسط دائرة مغلقة في وقت نشد فيه الأحياء الراحة... ومع ذلك التفكير الذى لا نهاية له دقت مزامير الحياة.. انها العصافير الصغيرة على فروع تلك السدرة الضخمة الرابضة بالقرب من الدار. رأت هذه العصافير فلول الظلام هاربة ففرحت بقدوم يوم جميل ملىء بالحياة

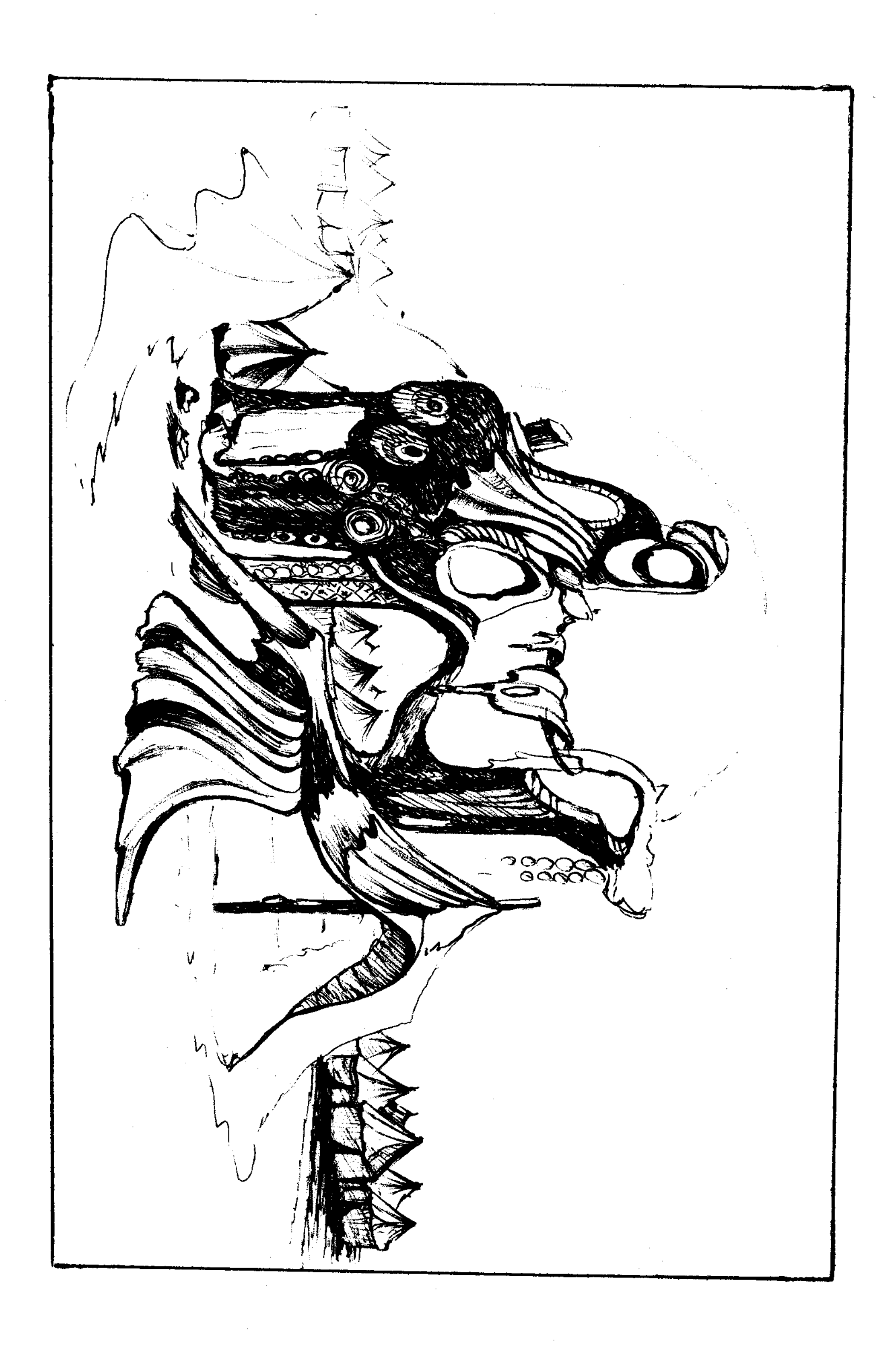
والأمل. أعجبها أن يظل نور مشرق ليفك أسرها و يتيح لها فرصة التحليق فى الجو الفسيح كما تشاء وحيثما تريد ...

أحس صابر أن الطبيعة فى منظرها الخلاب هذا قد أضفت على نفسه شيئاً قليلاً من السعادة التى ينشدها وعندها نهض من مرقد لم يذق فيه طعماً للنوم أو لذة للراحة. نهض فنادى ابنه الوحيد ليوقظه.. لقد دهش حينما رأى ابنه جالساً على فراشه. ولم لا؟ وذلك الإبن قد اعتاد ألا يستيقظ إلا مع طلوع الشمس؟ ولم يكن بد من طرد الوساوس والشكوك حينما اكتشف الوالد أن ابنه صحيحٌ معافى.. لم يكن بد من الإعداد السريع للطعام لهذين الضيفين اللذين سيسافران هذا اليوم...

لقد برزت الحسناء من خدرها ومع ترنحها فى مبدأ بهو السماء خرج الضيفان ــ الرجل والمرأة ــ من بيت صابر الذى وجدا به الراحة وحسن الضيافة ماجعلهما يضرعان إلى الله داعين له بالذرية الطيبة والأولاد الصالحين لتتحق أمنيته بعد أن علما أن هذه رغبته وأنه لم ينجب سوى هذا الشاب الذى يبدو عليه الصمت وملامح الذكاء. خرج الضيفان وهما يشكران لصابر حسن العناية ومبالغة الإكرام بعد أن منحها مايكفيهما من الزاد ودلهما على أقصر الطرق وأسهلها لبلوغ مايريدان. وما هى إلا ساعات قليلة من سفر الرجل وامرأته وإذا بصراخ وعويل يملآن جوانب دار صابر و يثيران فى نفسه آلاماً وجراحاً وشجوناً لا نهاية لها. انها المصيبة والمحنة والبلاء.

لقد حلت المصيبة على صابر حينما رأى زوجة ضيفه عائدة إلى بيته مولولة باكية حزينة على زوجها.. لقد عادت إلى دار صابر مكسورة الجناح كأنما قد مست بضر.. وأى ضر أعظم من قتل زوجها الذى أضحى فريسة لفكرة شيطانية أضاء لها إبليس مشاعلاً فى نفس ضعيفة عاجزة أوقد لها المشاعل ليحرقها لا لينير لها... أوقدها منذ الليلة الماضية فى نفس الشاب ــ وحيد صابر المضيف ــ لقد زين له الشيطان سوءة عمله وهون عليه قتل الرجل والنيل من المرأة..

لقد أعجب الفتى بمنظر زوجة ضيفهم وهام بوسامتها منذ أن رآها. ولذلك أبرمت نفسه الشريرة أمراً و بنى له شيطانه قصوراً فى الهواء وهمس فى أذنه أن دخول تلك



القصور والاستمتاع بها موكل بقتل ذلك المسافر والاستحواذ على زوجته الشابة الوسيمة النضرة تعقب الشاب طريق المسافرين ووجدهما قرب غدير تنعق غربان الصحراء من حوله وسرعان ماانقض على الرجل انقضاض الأسد على فريسته فقتله ومن ثم أغار على المرأة مهدداً إياها بما أوحى إليه شيطانه.. ولكنها تجلدت بالصبر واللامبالاة بهذا الحدث لتطمئن نفسه بعد أن أخبرته برغبتها الملحة فى الزواج منه وواعدته بأنها ستعود من وقتها إلى والده وتخبره بأن ذئباً أغار على زوجها فقتله. وعندها تنفس الصعداء وعاد من حيث أتى...

نظرت المسكينة إلى زوجها ودماؤه قد صبغت حصباء ذلك الكثيب وتسربت خفية إلى ماء الغدير الرقراق لتشهده بسوءة الجريمة وفداحة الخطب وجل المصاب.

وجدت أن زوجها جثة هامدة لا حراك فيها. فجن جنونها وعادت إلى بيت صابر تسابق الريح خوفاً ووجلا وبمرارة الصبر وعذاب تجرعه أفضت إلى مضيفهم بكل ماحدث وأخبرته بأن ابنه قد هددها إن هى قالت الحقيقة... لم يكن صابر يصدق أذنه بما تسمع. كانت كلمات الفتاة تقع فى نفسه موقع الألم والحرقة. وأصيب برعدة شديدة ثم أغمى عليه بعدها...

قام صابر من إغمائه تلك وتعمق بتفكيره فى أغوار الحقيقة المرة التى لا مفر من مواجهتها. وعندها وجد أن هذا الشاب هو ابنه الوحيد الذى هو نصيبه من الأولاد مافتىء يتطلع إلى مستقبله وافتخاره به وحاجته إليه ثم هو يتطلع إلى ذلك اليوم الذى تشرق فيه الشمس وقد سعد بأنوار طفل جديد يملأ حياته سعادة وطمأنينة وفرحاً... لقد حرص على ذلك وتزوج عشراً من النساء بحثاً عن الأولاد ولكنه لم يشأ الله له بما أراد وصار هذا الشاب أول طفل يراه ويحتل من نفسه وقلبه كل ذرة فيهما...

وبجانب ذلك كله رأى صابر أن شرفه ومروءته وكرامته ودينه تأبى هذا العمل مهما كانت التضحية. ثم يقف حائراً بازدراء حينما يتبادر إلى ذهنه أن يترك هذا الإبن المستهتر الذى أغار على ضيفه إغارة الأسد الضارى بعد أن خرج من بيته وأكل من طعامه... وبالطبع بعيد هذا عن رجل كصابر وضع نفسه فى هذا الأمر قاضياً

فى محكمة لا ترحم لتعدل ولتصدع بالحق مهما ادلهمت الخطوب. وتشعبت الآراء.

وفى الهاجرة أتى الشاب إلى البيت وقد غيرت معالم وجهه بشاعة الجريمة. ولكن الوالد الحكيم تظاهر باللامبالاة وأن مايهم فقط بالنسبة له هو مواراة الجثة ليس غير.

وسرعان ماسار صابر وابنه إلى مكان الجثة ليواروها...

انها المصيبة التى أطبقت بيد من حديد لتضع صابر فى واقع مر ير لا مفر منه... وفى مكان قد زادت وحشته و بشع منظره أخذ الشاب يحفر قبراً عميقاً بأمر والده وإرشاده. وحانت من صابر التفاتة إلى الجثة الهامدة ولم يلبث أن أطبق على ابنه فى داخل القبر حتى قتله. لقد قتل وحيده داخل هذا القبر العميق ليطمئن نفسه و يرضى ضميره وليشعر تلك العاطفة الأبو ية المسكينة أنها لا تساوى شيئاً أمام كرامته وشرفه ودينه... لم تتوقع الفتاة هذا العمل من صابر ورأت فيه شخصية تمتاز بالصمود والحرص والوفاء والتجلد والصبر.. وهنا عاد صابر بهذه المسكينة إلى داره ليكرمها و يواسيها بعد مواراة الجثتين فى قبر واحد، عاد إلى الدار وفى النفس مافيها من لوعة وحرقة وألم... ثم يلزم نفسه بإيصال الفتاة إلى غاية سفرها ولكنها بمثل قوته وتصميمه أصرت على أن تبقى بجانبه وترتضيه زوجاً لها بعد موافقة أهلها وانتهاء عدتها. وماهى إلا أشهر قليلة حتى أعلن الزواج فى القر ية وبدت السعادة تقترب من صابر ثانية لتضىء داره بجانب ذلك السفح وهنا تبدو المعجزة.. انها لمعجزة بحق أمام الطاقة البشر ية ولكنها أمام القدرة الإلهية بسيطة لا تذكر.. أتت لتشعر صابر ألا يأس من رحمة الله ولا مفر من قضائه وقدره... لقد أنجب صابر بعد طول انتظار. لقد رزق بولدين بعد تسعة أشهر فقط من الزواج هذا. وتمر السنين و يرزق صابر بتوأمين آخر ين وهكذا بلغ أولاده العشرة بعد عدة سنين.. وهنا تمر ساعة بصابر من أعظم وأجمل ساعات السعادة رأى من خلالها الحياة والنور... رأى معنى للحياة يسطع داخل نفسه. ونظر إلى أولاده العشرة من حوله فأدرك أن أمنيته قد تحققت وأن صبره قد أثمر وأن إرادة الله وقدرته لا تقف عند حد لذلك سجد لله شكراً وتعظيماً...

المعطف المشؤوم

المعطف المشئوم

أى معطف مشئوم أنت... وأى بلاء قد كساك... وأى يوم نحس أدخلك هذه الدار؟.. إنك لم تكن مظهراً للفرح بل كنت مصدراً لحزن عميق وفراق ليس له نهاية.. لقد أزعجتنى أيها المعطف وكنت سبب شقاء لحياتى وحياة آخرين غيرى، صحيح أننى كنت معجباً بك وكنت انت مبعث اعتزازى وفخر لى فى يوم العيد الذى ارتديتك فيه وكانت فرحتى بك لا توصف حين تصدرت المجلس بين رفاقى فى ساعة من ساعات اللقاء وأنا أرتديك.. ولكننى لم يدر بخلدى أن تلك الساعة من الفرح يتبعها شقاء دهر وفراق من أحببته من كل قلبى بسببك أنت أيها المعطف النحس.

وقال هذا وهو يجهش بالبكاء ويحس بحرقة ليس لها وصف وقلبه يكاد ينقطع وأنفاسه تكاد تختنق. قال هذا وهو يتأمل البيت الذى أظلته فيه السعادة وضربت عليه أجنحتها فترة من الوقت ذهبت من عمر الزمن وأصبحت حلماً من أحلام الحياة... هذا البيت الذى أحس فيه سعيد أنه سعيد حقاً. عرف معنى الحياة التى تظللها دوحة الحب الوارفة.. لقد عاش عمره الماضى الذى لا يزيد عن خمسة وعشرين عاماًوهو فى حياة قلقة ومعيشة مضطربة وأعصاب حادة لا تتحمل أى شىء يراه مخالفاً لما تريد أو ترتاح إليه. ولكنه حينما ضم إليه زوجته ــ أم أيمن ــ فى هذا البيت الوادع وأحاطته بحبها ورقة قلبها وحنانها وأحس من قلبها الطيب كل معانى الحياة الهادئة المستقرة ارتاحت نفسه إليها وصارت حياته مليئة بالهدوء والطمأنينة.. لقد علمته (أم أيمن) كما يسميها فى مداعبته لها معنى التعقل ومناقشة الأمور فى موضوعية وواقعية. كانت دائماً تقاوم كل ثورة فى نفسه وتحد من غليانها كى لا تنقض فتحرق أعصابه حتى خفت حدته وصار إنساناً يحس بكل معانى الإنسانية.. المحبة.. المسالمة.. وهو دائماً يذكر ذلك لها و يشعرها أن الفضل فى تخفيف حدته تلك



التى نشأ عليها منذ الصغر يعود إليها بعد الله. وكثيراً ماحدثها عن منشأ هذه الحدة وتلك الثورة فى نفسه وماجبل عليه منذ صغره ودور مامر عليه من مشاكل وأحداث فى حياته من جرائها.. سنتان مضتا على زواجهما ومرت أيامهما كأنها حلم من الأحلام فى نفسه. لها لذة ومتعة حينما يتذكر تلك الساعات. ولم يذكر أى ساعة فيها كانت مصدر إزعاج أو نفور بينه وبين زوجته ــ أم أيمن ــ لقد عرفته حق المعرفة واستطاعت أن تصنع السعادة فى هذا البيت وأن تجعل منه إنساناً مرحاً محباً للتفكه معها حتى غطى ما اختار لها من اسم ــ أم أيمن ــ على اسمها الحقيقى فى نفسه. وصار يناديها به على الرغم من انهما لم ينجبا بعد. وهو الآخر كان يرى فيها كل الناس. ويرى أنه سعيد حقاً حينما وفق للزواج منها. ولا تزال تتردد على سمعه بين كل لحظة سعادة وأخرى تمر عليها كلمات أخيها سمير زميل صباه ورفيق عمره وصاحبه على مقاعد الدرس الذى ذكر له من أخلاقها وصفاتها ماشجعه على خطبتها من أبيها حتى تم الزواج ولهذا فحبه لسمير وإخلاصه له قد فاق كل تصور لأنه كان مصدر سعادة له بانضمام هذه الإنسانة إليه.. سنتان مرتا وإخلاصهما لبعضهما فى ازدياد وكلاهما ينتظر يوم الفرحة الكبرى فى قدوم أول مولود لهما الذى اتفقا على اسمه وطريقة تعليمه. ينتظران قدوم ــ أيمن ــ الذى رأى سعيد أن يسمى به مولودهما الأول فى هذا البيت السعيد.

لقد كان هناك اختلاف بينهما على اختلاف الاسم وذكرت يومها كافة اخوانها لتسميته بأحدهم واستقر رأيهم أخيراً على هذا الاسم فقط دون غيره نزولاً على رغبة سعيد نفسه. ولكنها نسيت أن تذكر له اسم أخيها من أبيها الذى لايزال يدرس فى بلاد بعيدة منذ أربع سنوات ولم يتمكن من حضور حفل الزواج. وقد استقر فى رأى ومخيلة سعيد أن كل العائلة هم مارآهم ليلة زواجه من زوجته وحتى سمير لم يذكر له أخاً من أبيه. ولكنه سمع مرة منه قوله أن صالحاً سافر لإكمال دراسته فى الخارج وحالت مشاغل الحصة فى تلك اللحظة عن سؤال سمير من هو صالح هذا؟ ومرت السنوات على هذه الجملة، وهى لاتزال فى عالم النسيان فى ذهن سعيد.

وفى صباح يوم من أيام عطل الأسبوع أحس سعيد من زوجته رغبتها الملحة فى

زيارة أهلها وحاول إقناعها بتأجيل ذلك إلى عطلة الأسبوع القادم ولكن بدون جدوى ونزولاً عند إلحاحها خاصة وقد بلغ حبها منه مبلغه ذهب بها إليهم وأقام عندهم يومه وتركها لديهم لمرض رأى أنها تعانى منه أدرك خلاله أن موعد قدوم مولودهما الأول قد قرب. وحينما ودعها بحب وحنان وتمنيات ليعود إلى البيت وليتمكن من الذهاب إلى عمله فى اليوم الباكر حانت منها التفاتة رأت فيها أن معطف سعيد قد تمزق طرفه عند نزوله من السيارة وأوصته مترجية ألا يترك معطفه دون خياطة حال رجوعه إلى البيت حفاظاً على صحته من أذى البرد فوعدها أن يفى بما أوصته به. وفور عودته إلى البيت أخذ يبحث عن مكان الإبرة ليخيط ماتمزق من معطفه إنه يعرف الخياطة لأن أمه قد ماتت وهو صغير. وجد فى البحث فى أثاث زوجته وفى حقيبتها وهنا كانت الكارثة.

لقد وجد فى حقيبة ــ أم أيمن ــ صور لعدة أشخاص أخذ يتفحص واحداً بعد الآخر ويمعن فى صورهم. انها صورة أبيهاواخوانها وصورته معهم ولكن من هذا؟! صورة إنسان آخر غير هؤلاء. انه الوحيد الذى يبدوا ضاحكاً من بين هذه الصور ترى من هو؟ لقد أظلمت الدنيا فى عينى سعيد وصار يهذى بكلمات وكلمات ترى هل هى خائنة.؟! فعلاً ان حبها يبدوا كذباً وخداعاً وبهتاناً وزوراً.. يالها من فتاة كاذبة مخادعة. سنتان وأنا مخدوع بها مغتر فيها راضخ لكلامها المعسول وضحكاتها المزيفة.. مامعنى أن تبدوا صورة هذا ضاحكاً من بين هذه الصور؟! ثم من هو صاحب الصورة؟؟ إننى لم أره فى بيت العائلة اطلاقاً على كثرة معرفتى بهم لابد أنها خائنة قد أحبت إنساناً آخر وكل ماتبدى من حب مزعوم ليس صحيحاً إذن فأنا مخدوع مغفل أمام إنسانة كهذه.. كل هذه الوساوس وغيرها قد مرت فى لحظة أمام سعيد وبثورته وحدته القديمة رمى المعطف جانباً وأخذ ورقة وكتب طلاق زوجته البريئة الهادئة الوادعة وفى الحال امتطى سيارته وذهب بورقة الطلاق إلى أهل زوجته وعند الباب وبعد أن سلم الورقة لوالدها ووضعها الوالد فى جيبه ولم يدر مافى داخلها وبوجه ملىء بالبشر وبقلب يكاد يطير من الفرح قال الوالد لسعيد أبشر ياسعيد هذا ابنى صالح أتى من الخارج وقدم إلينا ابنك المنتظر ــ أيمن ــ ولذا فبيتنا الآن به ضيفان

عزيزان علينا. وهنا فى لحظة من لحظات اليأس والشقاء أدرك سعيد أن صاحب تلك الصورة الضاحكة هو صالح هذا الواقف أمامه على عتبة الدار.



عذاب الضمير

عذاب الضمير

قال بصوت متهدج ونبرات مبحوحة: إننى أعيش فى العقد السابع من عمرى عشت دهراً طويلاً رأيت من خلاله صوراً هى فى واقعها عناوين لسجل حافل بالذكريات ملىء بالعظات....

ألتفت خلفى فأرى أياما مضت أتمنى عودتها لولا أن بها مواقع قاتمة أكره عودة الأيام من أجلها..

إن أيام الشباب جميلة ومليئة بالمفاجآت ولذلك بودى أن أعيشها ولو لساعات أو لحظات... إن صورة تمر بذاكرتى من أيامى البعيدة تكبر مع الأيام أرى فيها شبحاً عظيماً يرهبنى بل ويخيفنى.. شبح يزداد مع الأيام كبراً.

ودعنى فلا أطيل عليك.. كنت إنساناً أحب الحياة وأرى فيها غايتى.. كنت أقول بل أؤمن (بأن المال هو الرجل) وكذلك أؤمن (بأن الغاية تبرر الوسيلة) ولذلك عشت دهراً وراء هذا القول مقتنعاً جازماً بصحته.. كنت أحب المال حباً جما وأنظر اليه نظرة المحب الذى لا يفرط فى أى مبلغ زهيد منه.. أمكث الساعات الطوال من أجله وأذكر أن ثوباً واحداً كنت ألبسه لأعوام عديدة. وحتى زوجاتى الأربع اللاتى تزوجتهن تباعاً قد مسهن الضر وذقن مرارة الحرمان وشدة التصبر.. وأبنائى لا أذكر يوماً أن يد أحدهم لامست قطعة نقود على الإطلاق وكل هذا لا أحفل به لأن وقته قد مضى وواتت ثماره رغم مرارتها ولكننى لا أزال أذكر بمزيد من الأذى والتحسر تلك الليالى القارسة البرد الشديدة الرياح المطيرة عندما انفتحت نافذة غرفتى لأرى طفلاً يتلوى من البرد فى ركن منزو وتحت جدار خرب... رأيت ملامح الحرمان وذل اليتم وصور الفاقة.. رأيت دمعه يسيل على وجنتيه بغزارة... كل شىء فى تلك الليلة يبدو صامتاً.. كانت نظراته تنزل على وتمس قلبى الذى تحجر ساعتها.. نظرت إليه

بوجه غاضب وعيون يطير منها الشرر وأغلقت النافذة فى وجهه.

كان مظهر بيتى رغم بساطته قد أغراه بوجود الدفء والابتسامة... تركت هذ ا الحدث وأسلمت نفسى للنوم و يالشد ماراعنى ليلتها.. لقد رأيت حلماً مخيفاً.. رأيت الشاب نفسه يأخذ عصا و يضربنى ضربة فى قلبى وأنا أطلب منه المزيد لأموت ولكنه يأبى وهذا ماحدث..

قمت مرعوباً أفتش عن الشاب فلم أجده وكأن الليل قد لفه بردائه الأسود وأخفاه بين ثنايا لفافاته واحتضنه فى جوفه.. عدت وفى نفسى لوعة وأسى وأقسم سلطان الكرى ألا يلامس أجفانى بقية الليل كله وكأنه رأى نظرته الضيقة المحدودة لنفسى فأراد أن يذيقنى بعضاً مما يعانيه الآخرون..

كانت صورة الطفل أمامى لا أنفك من مشاهدتها حتى أقبل ضوء الشمس متخللاً النافذة ليمنح الكون بما فيه غرفتى نوراً ساطعاً لا بخل فيه ولا تردد.. وحتى فى النهار الملىء بالحركة كانت الصورة تلاحقنى وأنا منها وجل.. لا أدرى كيف استأثرت هذه الحادثة على تفكيرى وطغت على غيرها فى عالمى مما هو فى ذهنى وبين أحاسيسى ومشاعرى.. وقاسيت من أجلها آلاماً نفسية بقيت عالقة فى ذهنى فى كل وقت..

ومما يزيد الطين بلة أن هذا الطفل أعرفه يتيم طمع فى إحسانى ولاذ بجوارى لعلمه أن هناك صلة قربى تربطه بى.. ولكننى كنت يومها أعيش على مظاهر المادة والجاه والسلطان.. وكان البخل قد أحكم وثاقى وأرغمنى على السير فى ركابه بإيعاز فى نفسى الشحيحة وقلبى الملىء بالخبث والبغضاء والحقد لبنى البشر عامة.. وهذه الحادثة قاسيت منها الكثير وبقيت عالقة فى ذهنى منذ سنين عديدة.. المهم أننى تتبعت أخبار الفتى بعدها وتأكدت أن إنساناً دفعته انسانيته ودينه لإنقاذ ذلك الطفل مما هو فيه ورسم له الطريق ليمضى فى الحياة.. وهاهو الآن رجل فى عداد الرجال قد لايذكر كثيراً من ماضيه وهو متطلع لمستقبله.

وصدقنى أن ذلك الطفل هو ابن أختى وأنا الآن عالة عليه.

حروف في الرماد

حروف فى الرماد

كانت (حياة) فتاة غضة الإهاب فارعة الطول شاحبة الوجه قد التفت بملبس خشن وثياب رثة قد أحاطت بها عباءة مرقعة.. كانت تتستر بالأزقة الضيقة لتبحث عن لقمة العيش.. إنها تعمل لدى نساء الحى. تركها أبواها فى كوخ صغير وتوفيا وخلفا بجانبها طفلاً أحاطته والدتها بعنقها فى مرضها الذى غادرت فيه إلى دار الآخرة.. لقد أحبت (حياة) أخاها حباً جما.. انها تستأنس به وتداعبه وترى من خلال ابتساماته البريئة المستقبل الذى ينتظره والعبء الثقيل الذى تنوء به... لقد بكت كثيراً لأن البكاء تجد به تنفيساً عما تقاسيه من اللوعة والحرمان.. كانت تتركه وتخرج كل يوم إلى ربات البيوت لتعمل لديهن وتأخذ مقابل عملها ماتقيم به أودها وتطعم أخاها.. إنها تسير إلى عملها كل يوم بين بيت وآخر وقد صمت أذنها وأغمضت عينيها عن كل ماتلاحظه من اشمئزاز نفوس تراها فى منظرها الموحش وحركاتها الهزيلة.. انها تقابل كل ذلك بسرحان عميق ولا مبالاة متناهية..

تسير فى طريقها وعندما ترى مالايعجبها أو تلاحظ مايضايقها تتظاهر بالغباء والبله وكثيراً ماهمست إلى نفسها وتساءلت لماذا كل هذا العناء؟! ومامعنى أن لا تشقى الأخريات سواى؟! ولكنها سرعان ماتعود إلى رشدها وتستغفر الله وتسأل المعونة والتوفيق.. تسأله أن يقيض لها من يعينها ويعطف عليها ويسهل لها طريق السعادة بعد أن تنكر لها جميع من يمت إلى أبيها بصلة لا لشىء طبعاً سوى أنها فقيرة معدمة ولو اقتصر الأمر عليها لسهل ولكنها تحمل أخاها الصغير ابن السنتين.

ولذلك فهى تشقى بالنهار وتحلم بالسعادة فى الليل. بل تسبح فى بحر خضم من الذكريات والآمال والآلام.. إنها تريد الحياة وتضطرب لها ولكن كيف؟!

لاتدرى ماذا تعمل ولا من أى باب من الأبواب تلج. هل تصبر على هذا الحال؟! أم أنها تبقى فى كوخها وتموت جوعاً؟! ولكن ماذا تعمل بهذا الصبى

الصغير الذى يملأ صراخه أرجاء هذا الكوخ؟!.. ماأسعدها إذا ابتسم وماأشقاها إذا ناداها: ماما.. ماما.. لأنه لم يعرف غيرها ولم تر عينه سواها.. لقد نحل جسمها واصفر لونها ولم تستطع الحراك فى يومها لمرض ألم بها.. ومع مرضها الذى استمر أياماً زاد صراخ هذا الصغير ومالبت أفكارها وسبحت فى خيالها ونسيت نفسها وخرجت به من الكوخ دون شعور منها ولكن إلى أين؟! سألت نفسها بعد خطوات قصيرة..

خرجت من الكوخ وتطلعت فى فضاء الله الواسع وسارت على غير هدى ثم أطرقت برهة ولم تلبث أن صرخت دون شعور. لقد تذكرته. سوف أذهب إليه. ربما لايعلم عنى شيئاً إنه رفيق صباى وأنيس وحدتى فى صغرى ابن عمى (فالح) لقد أصبح رجلاً له شأن كبير لماله الكثير.. إن صلة القربى وعهد الصبى سيجعلانه يبالغ فى إكرامى إننى أعرف بيته جيداً فى القرية الأخرى بجانب تلك الحديقة الغناء..

وبدون تردد سارت مسرعة نحو داره فى القرية الأخرى ونسيت أنها مريضة. سارت تحمل أخاها.. وعشرات من الصور ترتسم فى مخيلتها. كيف سيقابلها؟! وماذا تقابل عتابه لها على عدم اخباره بحالها قبل الآن؟!

إنها تساؤلات وتساؤلات. لم تشعر معها إلا وهى أمام باب الدار لقد طرقته بسرعة واضطراب.. إنها مستعجلة متلهفة شاكية باكية. ولكنها القلوب إذا تحجرت صارت كالصخرة أو أشد.. أطل ابن عمها (فالح) ليراها ويعرفها حق المعرفة ولكنه قد تحجر قلبه ونفض يده منها وتنكر لها بل وسبها سباً مقذعاً.. وحاولت (حياة) بعباراتها الساخنة وقلبها المكسور وفرائضها المرتعشة أن تعرفه بنفسها وتذكره بأيامهما ولكنه تجاهلها وأغلق الباب فى وجهها فانتحرت آمالها على صخرة اليأس وعادت بحرقة وقلب مكسور والدنيا بأكملها قد صغرت فى عينيها.. عادت بالبكاء والدموع المنهمرة وفى طريقها على بعد خطوات من دار (فالح) يقابلها ذلك الشيخ الوقور الشهم.. إنه الشيخ جابر صديق أبيها وجاره منذ القدم.. لقد عرف لتوه قصتها كاملة وشاهد ذلك الموقف المخزى من (فالح) فثارت نخوته على فقره هو الآخر وأقسم عليها أن تعود لدارها مرة أخرى وأن لا تخرج منه وأقسم أن يتكفل بكل ماتحتاجه مما يقدر عليه وينفق منه أبناءه.. انها لم تصدق ماتسمع.. إن هذا القول يعنى أنها لن تخدم النساء

مرة أخرى.. كم هى فرحة بهذا؟! وكم هم أولئك الناس الذين يعرفون الخير ويحتفظون بالمعروف؟!

لقد شعرت أن نفحة من السماء قد أحاطتها واستجاب الله دعاءها فعادت إلى كوخها الذى ترى فيه حنان أبيها وعطف أمها. وترى فيه آمالاً كبيرة لهذا الصغير الذى تحمله.. عادت إلى كوخها الذى رأت أن بصيصاً من السعادة قد دخله بمرور الشيخ جابر يومياً متفقداً وسائلاً فى طيبة متناهية ورجولة وإيمان عميق.

وتمر أيام وأيام و يأتى الشيخ جابر ذات مساء وهو يعد حبات مسبحته الطو يلة مبتسماً.. أدركت (حياة) أن ابتسامته تلك خلفها أشياء وأشياء. فاستقبلته بعد أن وقر فى نفسها أبوته لها ورعايته وحرصه عليها.. استقبلته ببشر وسرور وتعلق أخوها بهذا الرجل الطيب وصار يناديه.. بابا.. بابا..

نعم لقد دخل عليها الشيخ جابر بمسبحته الطو يلة ولحيته الكثيفة وهو يدعو و يتمتم فترة من الزمن ثم أسر إلى حياة أمر تقدم أحد الفتيان لخطبتها.. إنه فتى من خيرة فتيان الحى اختاره لها ليكون زوجاً.. لم ترد (حياة) بكلمة إلا قولها بعد استحياء وخجل: (ماتختاره لى فهو خير) ولم تمض أيام حتى زفت حياة إلى بيت الزوجية بسعادة غامرة وفرح كبير.

وعاشت فى بيتها السعيد محبة لزوجها راعية لأخيها الذى قد أدخلته المدرسة.. وفى كل يوم تدعو من أعماقها للعم (جابر) بالتوفيق والمغفرة لأنه قدم لها الدنيا بقلبه الطيب وكلماته الوقورة وشهامته الفذة ورجولته النادرة..

وتظلل السعادة بيتها و يعيش الحب مع أفرادها.. إنها الحياة السعيدة تعيشها (حياة) فى هذه الدار بين حب زوج طيب وعطف شيخ جليل وابتسامات طفل برىء..

لقد ذهب الشتاء وجاء الصيف بشمسه اللافحة وفى الهجير من أحد أيامه سمعت (حياة) على بابها طرقات سائل.. إنه سائل محروم ترن طرقاته شغاف قلبها..

ولم لا؟! إنها تجرعت مرارة التسكع وهوان الحرمان وذل المسألة.. أسرعت إلى الباب وفتحته.. و يالذهولها و يالشد دهشتها حينما فتحت الباب.. إنه (فالح) ابن عمها الذى طردها قبل سنوات.. مسكين قد تبدلت حاله وشحب وجهه ورثت ملابسه وخفت صوته وغارت عيناه ونحل جسمه إنه فالح بعينه عرفته حق المعرفة مع أنه لم يعرفها.. لقد تبددت ثروته والتهمتها النيران وطالبه الدائنون فتشرد من مطاردتهم بعد أن تركه الأصدقاء وتنكر له الأخلاء.. فعاش حياة الذل والهوان و بدأ يتشبث بكل من له بهم صلة وعرف أن (حياة) تعيش فى هذه القر ية ولكنه لم يعرف بيتها وأنه يبحث عنها لعلها تخفف وتهدىء روعه وتعيد إليه نسمة الحياة من جديد..

وقف (فالح) على الباب يسأل عن (حياة) لأنه لم يعرفها واستمرت فى وقفتها معه تسائله عن حاجته فقص عليها القصة كاملة واستمعت إليها بإنصات واهتمام.. فأدخلته إلى الدار و بالغت فى إكرامه وأخذت تلح عليه فى السؤال وهو يحدثها وفجأة أحس بأمر جعله يسأل هذه المرأة ماسبب اهتمامها به و إلحاحها فى سؤاله؟! هل تعرف شيئاً عنه؟!

لقد سألها بإلحاح عن اسمها وأصر على ذلك ليحتفظ لها بمعروفها فى ملاطفته و يشكر لها اهتمامها به.. وترددت (حياة) عن الإفصاح له بالحقيقة ولكنه يصر.. و يصر فتترقرق دموعها وتجهش بالبكاء وتعجز عن الكلام لأنها تذكرت حياتها السابقة وموقفه معها فلم تستطع أن تنطق ببنت شفة وهو يحدق فيها وتمد يدها إلى موقد نار أمامها وتكتب اسمها بحروف مقطعة فى الرماد.

همس ودموع

همس ودموع

كان الليل قد ضرب أطنابه على الكون وفى وسط ظلامه البهيم أطل القمر باسماً للطبيعة بأشعتها الذهبية الرقيقة ومع إطلالته التفتت زهرة وقد ولى شبابها واصفر عودها وذبلت أوراقها وتناثر عقد جيدها... التفتت إلى ابنتها المتأنقة الباسمة حولها تناجيها قائلة:

أبنيتى .. هاأنا قد خلفتك بعدى فى هذا الوقت أرى السعادة تغمرنى والطرب يهز مشاعرى بعد أن ملأت مقلتى بمرآك البديع وأنت تستقبلين الحياة.. فكم تمنيت على الله أن أراك قبل أن تعتزلنى الطبيعة وأفارق هذا الكون لأمنحك خلاصة حياتى وليرفرف طير السلام بجناحيه حولك لتتذوقي لذة الحياة.. نعم كم ابتهلت إلى الله فى غسق كل فجر ومع بادرة كل يوم أن أراك وقد اشتد ساعدك يحسبك عالم الأزهار من بين موجوداته تشاركينه أفراحه وأتراحه لتجودى بنفحة عطرة تسير مع النسيم يحس بها بنو البشر فتحصلى على عظيم تقديرهم وجميل ثنائهم..

بنيتى .. الحب فى هذه الحياة ربيع القلوب به تنعم الأفئدة وعليه تتسلق إلى ماتؤمل من خير وطمأنينة وأمان... أنظرى إلى العش فى أعلا هذه الشجرة وانظرى إلى ذلك الكوخ الصغير ثم التفتى إلى نحلتين فى يمينك كيف تقبلان تلك الزهرة الشابة المتأنقة وأخيراً انظرى بجانبك لولا الحب لما اجتمع الطائران فى عشهما.. ولما بنى الفلاح كوخه لزوجه وأطفاله.. ولما حنت النحلتان على جارتك بالقبلات المتتالية.. ولما وقفت أنا بجانبك وقفتى هذه... فاجعلي الحب شعارك واتخذيه قاعدة لتعيشى عيشة السعداء.... حيى النسيم عند مروره وانهالى عليه بقبلات متتالية.. وعطرى الجو من حولك تحظين بعناية هذا الفلاح المسكين.. لا تبخلى عليه بعطرك الفواح فلقد وجدت منه كل محبة وإخلاص ووفاء. بنيتى.. لا تبخلى على من مر بك من أبناء آدم وبنات حواء بابتساماتك الطاهرة الزكية. ابعثى فيها الإحساس

بالجمال ونمى بينها الافتنان بسحره فى كل مايرون أو يسمعون.. أشعريهم بأن السعادة ليست فيما يعتقدون من كثرة المال وتعدد مصادره بل السعادة الحقة نحن معشر الأزهار نعيشها بحبنا وطهارة نفوسنا وبراءتنا لانحقد على أحد مهما اشتد الأذى وعظمت المصيبة يعطر شذى وحدتنا عندما يحرمها لذة الحياة بالقطف فنسير وقد أحاطت رائحتها الزكية به إحاطة السوار بالزند... قابلى الإساءة بالإحسان دائماً كما هو معروف عنا.. ولا تنسى إيمانك بخالقك فى كل حين...

أبنيتي.. إن لتغريد العصافير علينا أكبر دليل على براءتها وحبها للحياة وفرحتها بنا فإذا ماحلق عصفور على ورقك تمايلى طرباً لتشعريه أنه حى به تحمل الطبيعة وتظهر مفاتنها ارقصي به كأنما هو الطبيعة من حولك بعينها فإذا ماغنى وبدأ رقص الأزهار فى كل ناحية بشريه بقدوم الربيع وعلميه كيف يتعامل مع أزهاره المقبلة.. وحذار أن يطغى ذلك على حبك وإعجابك وتمايلك لهبات النسيم التى هى فى الواقع جمالنا ومصدر حياتنا.. اذكرى دائماً جميل صنع النسيم علينا حينما يجود فى السحر بيد خفية بقطرات الندى التى تشكل تيجاناً على رؤوسنا نعتز بها ونفتخر ويزداد تأنقاً ونشاطاً بين حين وآخر.. وإياك أن يمر النسيم بساحتك وتطول وقفتك أمامه.. وأخيراً ماإيمانك بالحب لكل ماذكرت سوى مصدر لحياة أفضل لك وعصارة للتجارب التى مررت بها فى هذه الحياة لأشقى وتسعدى بعدى بها.. والآن ياصغيرتى صلى من أعماق قلبك بأن يعم الحب أرجاء المعمورة فلا بغضاء ولا كراهية ولا عدوان ولا احتقار.. وأجدنى هنا ياصغيرتى قد ودعت الدنيا وملأت ناظرى بمرآك الذى طالما تمنيته.. وقد تركت فيك ولك منظار الحياة الجميل وأوردت لك الحب بكل شيء فى الطبيعة من حولك... فوداعاً مع الغسق قبل الهجير..

الإصلاح

الحصــاد

لله درك من بطل موفق .. لله درك من ابن بار.. لله درك من رجل حياة.. بالأمس يابنى كنت تسير فى الظلال وتعيش فى الزوايا على حصباء من رمل أحمر يلتهب.. يحرق هناك فى الأرض البعيدة. وقفت أقدامك عن السير وتسمرت عيناك فى حلقة معتمة.. لاتبصر منها.. اختلطت الأضواء.. وضاقت الحدق.. تعودت عيناك على شمس ساطعة ولدت فيها فلامست أشعتها الفضية جسمك فى كل ذرة فيه.. ويومها ناغيت القمر وقبلت الشمس ورتبت على أكتاف أطفال الحى تمازحهم بابتسامتك الجملة التى يسيل رقة وعذوبة وتفتح الآمال إلى الحياة.. إلى الحياة من جديد. .

قالت هذا وهى تنظر إلى ابنها عائداً من غربته الطويلة.. قالت هذا ودموعها تسيل كحبات اللؤلؤ على وجنتين مقرحتين وجسم ناحل منهك أتعبته السنون وبوائق الأيام ومصائبها... تغمض عينيها..تستعيد ذكريات الشفاء والبؤس والفاقة والمرض..

تذكرت يوم أن فارقها ويداه تلوحان لها... سأعود ياأماه... سأعود...سأعود.. لقد فارقها لا لمجرد أن يذهب ويبتعد.. بل ليعود وفى يديه حبات القمح يزرعها على صخور الصحراء الصلدة.

كانت يده يوم أن فارقها ترتعش كريشة فى مهب الريح.. وكعصى قد هوت فى وادٍ سحيق بابتسامة مضمخة بالحب وألم الفراق والحرمان معاً... خيال يلوح من بعيد وصوت فى أعماق الأعماق.. وصدى أختلط بصخور الصحراء يلف الهواء

* اشترك المؤلف بهذه القصة فى ملتقى القصاصين الشباب بمهرجان الشباب العربى الخامس الذى عقد بدمشق فى الفترة من ٢٠/١٠/١٤٠١هـ إلى ٢٧/١٠/١٤٠١.

كالأعصار فيصطدم بالآذان والأفئدة وداعاً.. وداعاً.. وإلى لقاء قريب بكل الآمال والأحلام...

إنها سنوات مرت على الأم الحزينة الباكية.. سنوات بلا أحلام.. بلا هدف.. بلا حياة.. بلا آمال اختلطت فيها كل القيم والمثل والمبادىء..

رأت فيها عنترة قد أتى بحصانه فى بنى عبس... أنا عنترة بن شداد.. أنا العبسى.. واستيقظ امرؤ القيس... وتدحرج رأس كليب بن مرة... وصاح جساس وأتى المهلهل... وندبت جليلة حظها وبكت زوجها وأخاها...

وبدأ بنو هلال يعيشون تغريبة جديدة... وذهب أبو زيد فى رحلة طويلة يبحث عن نقطة ماء فى صحراء قاحلة يروى بها عطشه ومالبث أن عاد بلا لجام لفرسه فصاح فى أعلا الوادى: اقطعوا الأشجار واحملوا الجبال عن هذه الصحراء حتى تجدوا لجام الفرس... وفى أسفل الوادى أتى جرير بدفاتره... والأخطل بحقيبته والمتنبى بقلمه والفرزدق بعصاه... كل يريد أن يتكلم فلا يستطيع... كل يريد أن يلوح فلا يقدر.. لقد ماتت الأحاسيس.. وتبلدت المشاعر.. وتجمدت الكلمات...

ياإلهى وهذا قيس تنكر لليلى العامرية... وبصق جميل فى وجه بثينة... وحفرت عبلة قبر عنترة لتشعل فيه النار... اهتزت الأشجار وتطايرت الأوراق تقطر دماً.. تحولت الرمال إلى رماد وهبت الريح فقامت أعاصير وسالت أنهار من دم فى أودية مسطحة.. وبحث الناس عن الماء فلم يجدوه...

وتنحنح أبو الأسود الدؤلى وقال فى العربية كلاماً لم يسمعه أحد لأن الناس بلا آذان... وتحدث سيبويه فى سوق عكاظ فى خيمة اقتلعتها الريح فذهب ولم يعد... وأتى الإمام إلى المسجد لينادى (حيعل الصلاة) فإذا الناس يحلبون الحجر.. وإذا امرأة تطوف بنخلة تقول: (يافحل الفحول امنحنى زوجاً قبل الحول)... وإذا طفل يسأل الناس بقدحه ليبصقوا فيه كى تشفى أمه وتعود إلى أبيه....

ياإلهى قالت الأم الرؤوم.. أين الخلاص؟ ..أين الخلاص؟.. لقد مسخت الحياة

كل شيء فيه قد تبدل.. والضحك.. البكاء.. النحيب.. النوق بلا ضروع... والخيل بلا قوائم.. صارت الحياة مسخاً فى كل شيء... مسخاً فى كل معنى من معانيها... وأجهشت الأم بالبكاء وأدخلت رأسها فى كوة ركن معتم تصيح وتنتحب... تحجرت كلماتها... يبست دموعها.. ذهبت فى عالم السنون المضطربة...

أما لهذا الليل من آخر؟... أما آن للفجر أن يرسل تباشيره على الكون؟...

وفجأة تسمع الصوت... صوت يرن فى أذنها.. أماه.. أماه.. هاأنذا قد أتيت.. أتيتك ياأماه.. انظرى.. التفتى.. أتيتك على حصانى الأبيض... انظرى مئذنة المسجد تبتسم... وحمامته تطوف... لقد أسرجت ضياءها بيدى هذه... وغرست نخلتنا وهذه ثمارها الذهبية...

وصالحت بن عبس وذبيان وأقيمت الأفراح فى دار بكر وتغلب.. وقبل عدنان قحطان.. وربطت حصان عنترة.. وسلمت أبا زيد لجام فرسه.. ومدح جرير الفرزدق وكف الحطيئة عن الهجاء وقال المتنبى فى القلم والسيف قوله...

أما قيس فقد رجع إلى ليلى العامرية... ومسح جميل بصقته فى وجه بثينة وأطفأت عبلة النار عن قبر عنترة وعادت لحبها له من جديد... وفهم الناس كلام أبى الأسود... ورست خيمة سيبويه...

أنظرى يا أماه... إلى الأوراق... إلى الأزهار التى غرستها كيف تعيش فى عرس وبهجة منظر...

انظرى إلى أنهار الذهب من تحتك تجرى.. وأنهار الماء بين يديك تسير..

انظرى إلى أشجار النخيل والليمون قد نبتت على تلك الصخور الصلدة.

انظرى إلى أطفال الحى يمرحون... إلى النساء يرقصن... إلى الرجال يهزجون... لقد أعيدت السيوف إلى أغمادها... ورجعت الخيل إلى قوائمها.. وارتسمت على الشفاه ضحكاتها...

إنه الحب ياأماه.. وليس شىء غيره زرعته فى صحرائنا فعادت لها بهجتها ونضارتها وبدأت حياتها من جديد.



الفهرس

مطابع الفرزدق التجارية
تلفون ٤٧٨٨٥١٠ الملز